

صراع الأخوين

كامل كيلاني



صِرَاعُ الْأَخْوِينِ

صِرَاعُ الْأَخْوِينِ

تأليف
كامل كيلاني



رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٩٤٦٥

تدمك: ٩ ١٢٨ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: ورود الصاوي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	١- مُعَلِّمُ الرِّمَایَةِ
٢٥	٢- قَصْرُ الْهَلَاكِ
٤١	٣- أَمِیرَةُ الْبُنْغَالِ
٥٥	٤- الْمَعْرَكَةُ الْحَاسِمَةُ

الفصل الأول

مُعَلِّمُ الرِّمَاطَةِ

(١) فَاتِحَةُ الْقِصَّةِ

كَانَ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ، وَيَا مَا أَعْجَبَ مَا كَانَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ! كَانَ فِيهَا مَلِكٌ كَبِيرُ الْقَدْرِ وَالشَّانِ، عَظِيمُ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ، جَلَسَ عَلَى الْعَرْشِ مُنْذُ طُفُولَتِهِ، وَسَاسَ أُمُورَ بِلَادِهِ فِي عَهْدِي صِبَاهُ وَكُهُولَتِهِ، وَامْتَدَّ حُكْمُهُ إِلَى زَمَنِي هَرَمِهِ وَشَيْخُوحَتِهِ.

وَقَدْ بَدَأَتِ الْقِصَّةُ حِينَ كَبَرَ الْمَلِكُ «بِهَشْمَا» — وَهَذَا هُوَ اسْمُهُ، كَمَا عَرَفْنَاهُ مِمَّا قَرَأْنَاهُ، مِنْ أَحَادِيثِ الْقِصَاصِينَ وَأَنْبَاءِ الرُّوَاةِ — فَقَدْ أُخْبِرْنَا الْأَنْبَاءُ مِنْهُمْ وَالتَّنْقَاتُ، أَنَّ الْمَلِكُ «بِهَشْمَا» قَدْ تَبَدَّلَ — عَلَى مَرِّ السِّنِينَ وَكُرِّ الْأَعْوَامِ — ضَعْفًا مِنْ قُوَّةٍ، وَعَجْزًا مِنْ فُتُوَّةٍ؛ وَقَوَسَتْ ظَهْرُهُ الْأَيَّامُ، حِينَ أَشْرَفَتْ حَيَاتُهُ عَلَى الْخِتَامِ. وَقَدْ أَعْجَزَتْهُ الشَّيْخُوحَةُ عَنِ الْإِضْطِلَاعِ بِمَهَامِ الدَّوْلَةِ، وَتَدْبِيرِ سِيَاسَةِ الْمَمْلَكَةِ، وَالْعِنَايَةِ بِشُئُونِ الشَّعْبِ.

(٢) أَنْبَاءُ الْعَمِّ

وَكَانَ الْمَلِكُ «بِهَشْمَا» قَدْ خَافَ — وَهُوَ فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِهِ وَلَدَيْنِ، سَمَّى أَكْبَرَهُمَا «دَرَسْتَرَسَا» وَسَمَّى الْآخَرَ «بَنْدُو». وَكَانَ أَوْلَهُمَا — لِسُوءِ حَظِّهِ — أَكْمَهُ، أَعْنِي: أَنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى؛ فَلَمْ يُمْكِنْهُ عَمَاهُ، أَنْ يُعَاوَنَ أَبَاهُ. وَكَانَ النَّاسُ يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ لَقَبَ: «الضَّرِيرِ» (الْأَعْمَى)، كَمَا يُطْلِقُونَ عَلَى أَوْلَادِهِ لَقَبَ: أَنْبَاءُ «الضَّرِيرِ» (أَوْلَادِ الْأَعْمَى). أَمَّا وَلَدُهُ الْآخَرُ «بَنْدُو» فَلَمْ يَطْلُ عُمُرُهُ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَعْجَلَهُ حِمَامُهُ (أَسْرَعَ إِلَيْهِ الْمَوْتُ)، وَخْتِمَتْ — فِي رِيْعَانِ شَبَابِهِ — أَيَّامُهُ وَكَانَ فِي حَيَاتِهِ مِثَالِ الْإِقْدَامِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالذَّرْبَةِ وَالْبِرَاعَةِ. فَأَحَبَّهُ أَصْدِقَاؤُهُ، وَتَهَيَّبَهُ



أَعْدَاؤُهُ، وَحَالَفَهُ النَّصْرُ فِي كُلِّ مَا شَهِدَهُ مِنَ الْمَعَارِكِ، وَقَدْ صَرَعه سَهْمٌ غَادِرٌ فِي آخِرِ مَعْرَكَةٍ قَادَهَا، بَعْدَ أَنْ تَمَّتْ لَهُ الْغَلْبَةُ وَكُتِبَ لَهُ النَّصْرُ عَلَى أَعْدَاءِ بِلَادِهِ. فَكَانَ لِمَصْرَعِهِ دَوِيٌّ عَظِيمٌ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ النَّاسُ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — لَقَبَ: «الشَّهِيدِ»؛ كَمَا أُطْلِقُوا عَلَى أَبْنَائِهِ لَقَبَ: «أَبْنَاءِ الشَّهِيدِ».

فَلَمَّا كَبِرَ أَبْنَاءُ «الضَّرِيرِ» وَأَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ»، وَبَلَّغُوا مَبْلَغَ الرِّجَالِ، وَعَقَدَتْ عَلَيْهِمْ كِبَارُ الْأَمَالِ، كَانَ جَدُّهُمْ «بِهَشْمًا» قَدْ بَلَغَ سِنَّ الشَّيْخُوخَةِ، وَابْيَضَّ شَعْرُهُ، وَوَهَنْتْ (ضَعُفَتْ) قُوَاهُ، وَارْتَعَشَتْ — مِنَ الْكِبَرِ — يَدَاهُ. فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا (مَفْرَأًا) مِنَ التَّخَلِّيِّ عَنِ أَعْبَاءِ الْمُلْكِ.

(٣) دُرَيْدُهُانَا

قُلْتُ لَكَ إِنَّ أَبْنَاءَ «الضَّرِيرِ» وَأَبْنَاءَ «الشَّهِيدِ» كَانُوا حَفَدَةَ «بِهَشْمًا»، كَمَا قُلْتُ لَكَ إِنَّ أَوَّلَ هَذَيْنِ الْوَالِدَيْنِ عَاشَ أَعْمَى، وَالثَّانِي مَاتَ فِي رِيْعَانِ شَبَابِهِ. وَالآنَ أَقُولُ لَكَ: إِنَّ «دُرَيْدُهُانَا» كَانَ كَبِيرَ أُسْرَةٍ «الضَّرِيرِ» وَرَعِيمَهَا، وَإِنَّهُ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الْمُتَنَاقِضَاتِ: كَانَ يَجْمَعُ إِلَى كَيْدِ الضُّعْفَاءِ وَحِقْدِ الْجُبْنَاءِ، فِطْنَةَ الْأَذْكِيَاءِ، وَبَدَلَ الْكُرْمَاءِ، وَطُمُوْحَ الْأَقْوِيَاءِ.

(٤) أَرْجُونَا

بَقِيَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ «يُدِشْت-هَيْرًا» كَانَ كَبِيرَ أُسْرَةٍ «الشَّهِيدِ» وَرَعِيمَ إِخْوَتِهِ الْأَرْبَعَةِ، وَهُمْ عَلَى تَرْتِيبِ أَسْنَانِهِمْ (عَلَى حَسَبِ أَعْمَارِهِمْ): «بِهَمَا» وَ«أَرْجُونَا» وَالتَّوَامَانِ. أَمَّا «أَرْجُونَا» فَكَانَ أَوْسَطَ إِخْوَتِهِ سِنًّا، وَأَعْلَاهُمْ قَدْرًا، وَأَوْفَرَهُمْ فَضْلًا، وَأَمْضَاهُمْ عَزْمًا، وَأَعْظَمَهُمْ جُرْأَةً، وَأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا. وَأَمَّا أَخَوَاهُ الْأَصْغَرَانِ، فَكَانَا أَعْجَبَ تَوَامِينِ عَرَفْتُهُمَا بِلَادِ الْهِنْدِ. فَقَدْ كَانَا — لِطُولِ الْفَتْهِمَا وَتَوَافُقِ رَغْبَاتِهِمَا وَاتِّحَادِ أَهْوَائِهِمَا — لَا يَفْتَرِقَانِ فِي جِدِّ وَلَا لَعِبِ، وَلَا يَخْتَلِفَانِ فِي حُزْنٍ وَلَا طَرَبٍ؛ يَضْحَكُ أَحَدُهُمَا إِذَا ضَحِكَ آخُوهُ وَيَبْكِي إِذَا بَكَى، وَيَفْرَحُ إِذَا فَرِحَ وَيَتَأَلَّمُ إِذَا اشْتَكَى.

(٥) أُمْنِيَّةُ الشَّيْخِ

وَكَانَ أَكْبَرَ مَا يَتَمَنَّاهُ الشَّيْخُ «بِهَشْمًا» أَنْ يَرَى حَفَدَتَهُ (أَبْنَاءَ وَلَدِيهِ) مُنْحَدِينَ أَقْوِيَاءَ، يَدُودُونَ (يُدْفَعُونَ) عَنْ وَطَنِهِمْ وَيَرُدُّونَ عَادِيَةَ الْمُعْتَدِينَ، وَيَطْشُ الْغُرَاةَ الْمُعِيرِينَ. وَبَحَثَ الشَّيْخُ عَنِ مُعَلِّمٍ يَعْهَدُ إِلَيْهِ بِتَعْلِيمِ حَفَدَتِهِ، وَطَالَ بَحْثُهُ عَلَى غَيْرِ فَائِدَةٍ، فَتَمَلَّكَهُ الْحُزْنُ وَسَاوَرَهُ الْفُلُوقُ، بَعْدَ أَنْ رَأَى «دُرَيْدُهُانَا» وَابْنَ عَمِّهِ «يُدِشْت-هَيْرًا» يَفْتَرِبَانِ مِنْ سِنِّ الرُّجُولَةِ، دُونَ



أَنْ يَتَدَرَّبَا عَلَى الرَّمَايَةِ، وَيَتَمَرَّسَا بِضُرُوبِ الْحَرْبِ، وَفُنُونِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ؛ وَضَاعَفَ مِنْ
أَلَامِهِ أَنْ رَأَاهُمَا مُتَخَلِّفَيْنِ عَنْ أَتْرَابِهِمَا مِنْ شَبَابِ الْأُمَرَاءِ الْمُدْرِبِينَ.

(٦) الْمَعْلَمُ الْبَارِعُ

وَشَاءَ اللهُ - سُبْحَانَهُ - أَلَّا تَطُولَ حَبْرَةُ الشَّيْخِ، فَلَمْ يُلْبِثِ الْأُمْرَاءُ الصَّغَارُ أَنْ وَفَّقُوا إِلَى تَحْقِيقِ طَلِبَةِ جَدِّهِمْ، وَكَانَ اهْتِدَاؤُهُمْ إِلَى أَسْتَاذِهِمُ الْمُنْشُودِ أَسْعَدَ مُصَادَفَةٍ سَاقَهَا الْقَدَرُ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ الْهَرَمِ، وَأَبْهَجَ مُفَاجَأَةً أَدْخَلَتِ السُّرُورَ عَلَيْهِ.

(٧) الْكُرَّةُ الْغَارِقَةُ

كَانَ الْأُمْرَاءُ يَلْعَبُونَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ إِحْدَى الْأَبَارِ، فَكَذَفَ أَحَدُهُمْ بِالْكُرَّةِ، فَهَوَتْ إِلَى الْبَيْتِ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى سَطْحِ مَائِهَا. وَكَانَتْ كُرَّةٌ ثَمِينَةٌ مُحَلَّلَةٌ بِبِدَائِعِ النُّقُوشِ، مُزْدَانَةٌ بِرَوَائِعِ التَّصَاوِيرِ. وَقَدْ افْتَنَّ صَانِعُهَا فِيمَا أَبْدَعَهُ مِنْ صُورِ الْقُرُودِ وَالنُّمُورِ وَمَا إِلَيْهَا مِنْ حَيَوَانِ الْغَابَةِ. وَحَاوَلَ الْأُمْرَاءُ الصَّغَارُ أَنْ يَسْتَرِدُّوا الْكُرَّةَ بِالْعِصِيِّ تَارَةً وَبِالْحِجَارَةِ تَارَةً أُخْرَى، فَلَمْ يُحَالِفُهُمُ التَّوْفِيقُ، وَلَمْ يَظْفَرُوا مِنْ سَعْيِهِمْ بِغَيْرِ إِغْرَاقِهَا فِي قَرَارِ الْبَيْتِ، فَاسْتَدَّ بِهِمُ الْقَلْقُ وَسَاوَرَهُمُ الْيَأْسُ مِنْ اسْتِرْدَادِ كُرَّتِهِمُ الثَّمِينَةِ. وَأَيُّقِنُوا أَنَّهُمْ فَقَدُوهَا إِلَى الْأَبِيدِ. وَحَانَتْ مِنَ الْأُمْرَاءِ التِّفَاتَةُ، فَرَأَوْا الشَّيْخَ النَّاسِكَ الذَّكِيَّ «دُرُونَا» جَالِسًا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمْ، وَهُوَ يَشْخَصُ بِبَصَرِهِ إِلَيْهِمْ وَيَتَّبِعُهُمْ بِنَظَرَاتِهِ النَّفَّاذَةِ.

وَهُنَا التَّفَتُّ «أَرْجُونَا» لِأَصْحَابِهِ قَائِلًا: «مَاذَا عَلَيْنَا إِذَا لَجَأْنَا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ الْجَلِيلِ، لِنَلْتَمَسَ مِنْهُ الْعَوْنَ، لَعَلَّهُ يَسْتَطِيعُ - بِمَا أُوتِيَ مِنْ خَبْرَةٍ وَسَعَةِ عِلْمٍ - أَنْ يُعِيدَ إِلَيْنَا الْكُرَّةَ الْغَارِقَةَ». فَأَمَّنْ أَصْحَابُهُ عَلَى مَا قَالَ، وَاتَّجَّهُوا جَمِيعًا إِلَى النَّاسِكَ الْهَرَمِ، وَأَفْضَاوا إِلَيْهِ بِرَجَائِهِمْ فِي إِنْجَارِ مُلْتَمَسِهِمْ.

(٨) بَرَاعَةُ النَّاسِكَ

فَابْتَسَمَ الشَّيْخُ الْوَقُورُ، وَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَلْبِيَةِ رَغْبَةِ الْأُمْرَاءِ، وَلَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا تَوَارَتْ ابْتِسَامَتُهُ، وَأَعْقَبَهَا التَّجَهُمُ، وَارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ دَلَائِلُ الْغَيْظِ وَأَمَارَاتُ الْكَمَدِ، حِينَ تَبَيَّنَ عَجْزُ الْأُمْرَاءِ الْفِئْتَانِ عَنِ إِخْرَاجِ الْكُرَّةِ الْغَارِقَةِ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ قَائِلًا فِي لَهَجَةٍ حَازِمَةٍ أَسْفَةٍ: «تَبَّأَ لَكُمْ مِنْ صَبِيَّةٍ عَجْزَةٍ أَغْرَارٍ! كَيْفَ تَضَيِّقُونَ دَرْعًا بِإِخْرَاجِ الْكُرَّةِ الْغَارِقَةِ، وَأَنْتُمْ أَبْنَاءُ أَعْظَمَ

أُسْرَتَيْنِ أَنْجَبَتْهُمَا بِلَادُ الْهِنْدِ. كَيْفَ تَعْجُزُونَ يَا أَبْنَاءَ «الضَّرِيرِ» وَ«الشَّهِيدِ»؟ أَلَا تَرَوْنَ الْكُرَّةَ وَاضِحَةً مِنْ خِلَالِ الْمَاءِ الصَّافِي، لَا يَحْجُبُهَا عَنْ أَبْصَارِكُمْ شَيْءٌ؟ حَبْرُونِي أَيُّهَا الضَّعَافُ: مَنْ أُسْتَاذُكُمْ الَّذِي يُعَلِّمُكُمْ الرَّمَايَةَ وَيُدْرِبُكُمْ عَلَى فُنُونِهَا؟

فَأَجَابَهُ الصَّبِيُّ الْأَمْرَاءُ مُتَحَسِّرِينَ: «لَيْسَ لَنَا مَعَ الْأَسْفِ أُسْتَاذٌ يُشْرِفُ عَلَى تَعْلِيمِنَا فُنُونَ الرَّمَايَةِ.»

فَعَجِبَ النَّاسُكَ مِمَّا سَمِعَ، وَاشْتَدَّ دَهْشُهُ حِينَ سَمِعَهُمْ يَتَصَايْحُونَ قَائِلِينَ: «حَبْرْنَا أَيُّهَا النَّاسُكَ الْجَلِيلُ: أَيُّ مَقْدُورِكَ أَنْ نُعِيدَ إِلَيْنَا الْكُرَّةَ الْمَفْقُودَةَ؟ وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ؟!»

فَصَرَخَ فِيهِمْ غَاظِبًا: «شَدَّ مَا أُسْرَفْتُمْ فِي اللَّجَاجَةِ وَالْهَذْيَانِ، حِينَ أَكْبَرْتُمْ مَا صَغُرَ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْغَايَةِ الْيَسِيرَةِ، وَعَظَّمْتُمْ مِنْ أَمْرِهَا مَا حَقَّرَ.»

ثُمَّ انْتَزَعَ مِنْ إصْبَعِهِ خَاتَمًا مِنَ الْيَاقُوتِ، وَقَذَفَ بِهِ إِلَى الْبَيْرِ حَيْثُ تَسْتَقِرُّ الْكُرَّةُ، وَقَالَ لَهُمْ فِي لَهْجَةِ السَّاحِرِ الْوَاتِقِ: «لَنْ أَكْتَفِيَ بِإِخْرَاجِ الْكُرَّةِ وَحَدِّهَا، بَلْ أَزِيدُ عَلَيْهَا إِخْرَاجَ خَاتَمِ الْيَاقُوتِ الَّذِي قَذَفْتُ بِهِ أَمَامَكُمْ.»

وَلَا تَسَلْ عَنْ دَهْشَةِ الْأَمْرَاءِ، حِينَ رَأَوْا النَّاسِكَ الْهَرِمَ يَنْحَنِي عَلَى قَبْضَةٍ مِنَ الْحَشَائِشِ، فَيُتَخَيَّرُ مِنْهَا سَهْمًا يَضَعُهُ فِي قَوْسِهِ وَيُسَدِّدُهُ — فِي مَهَارَةٍ وَإِحْكَامٍ — إِلَى الْكُرَّةِ الْغَارِقَةِ فِي أَعْمَاقِ الْبَيْرِ، فَيَنْفِذَ السَّهْمَ فِي الْكُرَّةِ، كَمَا تَنْفِذُ الْإِبْرَةُ فِي الْحَرِيرِ.

وَسَدَّدَ النَّاسُكَ سَهْمًا آخَرَ فَنَفَذَ فِي نِهَآيَةِ السَّهْمِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَاحَ يُسَدِّدُ سَهَامَهُ فَيَشْتَبِكُ الْوَاحِدُ بِأَعْلَى طَرَفِ الْآخَرِ، حَتَّى تَأَلَّفَتِ مِنَ السَّهَامِ عَصَا طَوِيلَةٌ تَرْتَفِعُ إِلَى مُتَنَاوِلِ يَدِهِ، فَاْمَسَكَ بِهَا، وَقَذَفَ بِالْكُرَّةِ إِلَى الصَّبِيِّ الْمَشْدُوهِيْنَ الَّذِيْنَ أَذْهَلَهُمْ مَا رَأَوْهُ مِنْ بَرَاعَةِ النَّاسِكَ وَمَهَارَتِهِ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَتَسَاءَلُونَ: «مَا أَعْجَبَ مَا صَنَعْتَ! فَحَبْرْنَا كَيْفَ تَخْرُجُ الْخَاتَمَ مِنْ قَرَارِ الْبَيْرِ السَّحِيقِ؟»

وَسُرْعَانَ مَا فَتَحَ النَّاسُكَ جَعْبَتَهُ، وَتَخَيَّرَ مِنْهَا سَهْمًا وَضَعَهُ فِي قَوْسِهِ ثُمَّ سَدَّدَهُ إِلَى الْخَاتَمِ. يَا لِلَّهِ: أَيُّ سَاحِرٍ هَذَا الرَّجُلُ؟ يَا لِلْعَجَبِ! أَحَقُّ مَا تَرَاهُ أَعْيُنُهُمْ؟ أَمْ هُوَ صَرَبٌ مِنَ الْأَوْهَامِ حَيْلُهُ لَهُمُ السَّاحِرُ الْعَجِيبُ؟ أَتَعْرِفُ مَاذَا رَأَى الْأَمْرَاءُ الصَّغَارُ؟ رَأَوْا السَّهْمَ لَا يَنْطَلِقُ مِنْ قَوْسِهِ حَتَّى يَرْتَدَّ إِلَى صَاحِبِهِ، حَامِلًا فِي طَرَفِهِ الدَّقِيقِ خَاتَمَ الْيَاقُوتِ.



هُنَا لَمْ يَتِمَّا لَكُوا أَنْ يُصَفَّقُوا وَيَقْفَزُوا حَوْلَهُ، مُرَدِّدِينَ آيَاتِ الْإِعْجَابِ بِمَا رَأَوْا مِنْ قُدْرَةِ خَارِقَةٍ، بَعْدَ أَنْ شَهِدُوا مَا أَنْسَاهُمْ بَرَاعَةَ السَّحْرَةِ وَالْعَجَائِبِيِّينَ (الْحَوَاةِ) الَّذِينَ كَانُوا يَفْدُونَ فِي الْمَوَاسِمِ وَالْأَعْيَادِ، لِيَعْرِضُوا عَلَيْهِمْ مَا بَرَعُوا فِيهِ مِنْ تَرْوِضِ الْأَفَاعِي وَابْتِلَاعِ السُّيُوفِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ فُنُونِهِمُ الْمُعْجَبَةِ.

(٩) بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ

وهنا بَرَزَ «يُدْشِت-هيرا»، مِنَ الصَّفِّ، وَأَشَارَ إِلَى أَصْحَابِهِ أَنْ يَكْفُوا عَنْ ضَوْضَائِهِمْ — وَكَانَ «يُدْشِت-هيرا» أَكْبَرَ أَبْنَاءِ أَبِيهِ سِنًّا — وَأَنْدَفَعَ إِلَى النَّاسِكِ يَسْأَلُهُ مُتَوَدِّدًا: «بِمَاذَا نَسْتَطِيعُ

أَنْ نُعَبَّرَ عَنْ شُكْرِنَا لِهَذَا الصَّنِيعِ الْبَاهِرِ؟ وَأَيُّ هَدِيَّةٍ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُقَدِّمَهَا عَرَبُونًا لِاعْتِرَافِنَا بِالْجَمِيلِ؟»

فَالْتَفَتَ النَّاسِكُ إِلَى الْأَمْرَاءِ قَائِلًا: «خَبِّرُوا جَدَّكُمْ «بِهَشْمًا» الْعَظِيمَ أَنْ «دُرُونًا» — الَّذِي لَا يُخْطِئُ سَهْمُهُ الْهَدَفَ — قَدْ وَاصَلَ السَّيْرَ أَمْيَالًا حَتَّى وَقَدَ عَلَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْآنَ جَائِعٌ عَطْشَانٌ، يُعَوِّزُهُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ.»

فَاسْرَعَ الصَّبِيُّ الْأَمْرَاءَ إِلَى جَدِّهِ الْمَلِكِ، وَأَنْدَفَعُوا يَتَسَابِقُونَ لِیَحْدِثُوهُ بِقِصَّةِ النَّاسِكِ. وَمَا إِنْ سَمِعَ «بِهَشْمًا» بِاسْمِ «دُرُونًا» حَتَّى صَاحَ مُتَعَجِّبًا: «يَا لَهِ! «دُرُونًا»! هُنَا «دُرُونًا» قَدْ حَلَّ بِأَرْضِنَا، وَوَصَلَ إِلَى مَمْلَكَتِنَا؟! مَا أَسْعَدَهُ خَبْرًا! اسْرِعُوا بِإِحْضَارِهِ أَيُّهَا الْحَفْدَةُ الْأَعْرَاءُ!».

وَذَهَبَ الْأَمْرَاءُ إِلَى النَّاسِكِ «دُرُونًا» يَدْعُوهُ لِلِقَاءِ جَدِّهِمْ، وَاسْرَعُوا إِلَى الْبَابِ فَفَتَحُوهُ لَهُ. فَلَمَّا مَثَلَ «دُرُونًا» بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ حَيَّاهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ مُتَرَبِّعًا (ثَانِيًا قَدَمَيْهِ إِلَى مَا تَحْتَ فَخْذَيْهِ، مُخَالَفًا لَهُمَا) دَاعِمًا رَأْسَهُ بِرَاحَتَيْهِ (بِيَدَيْهِ)، شَاخِصًا بِنَصْرِهِ إِلَيْهِ. فَابْتَدَرَهُ الْمَلِكُ مَرَحَبًا، ثُمَّ حَتَمَ تَرْحِيْبَهُ قَائِلًا: «لَقَدْ طَالَتْ غَيْبَتُكَ عَنَّا يَا «دُرُونًا» وَأَنْتَ تَعْلُمُ فَرَطَ شَوْفِنَا إِلَى لُقْيَاكَ! عَلَى أَنَّ نِذْرَكَ لَمْ تَغِبْ عَنَّا خَاطِرِنَا قَطُّ! وَأَخْبَارَكَ لَمْ تَنْقَطِعْ عَنَّا. وَقَدْ أَتَلَّجَ صَدْرُنَا مَا ذَاعَ — فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْهِنْدِ — مِنْ أَنْبَاءِ بَرَاعَتِكَ فِي الرِّمَائَةِ وَمَهَارَتِكَ، وَرَهَادَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَقِنَاعَتِكَ.»

(١٠) حَدِيثُ النَّاسِكِ

فَقَالَ النَّاسِكُ: «شُكْرًا لَكَ يَا سَيِّدِي عَلَى مَا عَمَّرْتَنِي بِهِ مِنْ ثَنَاءٍ. فَهَلْ تَأْذُنُ لِي فِي مُحَادَثَتِكَ عَلَى انْفِرَادٍ.»

فَقَالَ الْمَلِكُ: «مَا أَشَوْقَنِي إِلَى حَدِيثِكَ.»

فَلَمَّا حَلَا الْمَكَانَ إِلَّا مِنْهُمَا، بَدَأَ النَّاسِكُ حَدِيثَهُ قَائِلًا:

«قَضَيْتُ أَيَّامَ شَبَابِي — أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ — فِي صُحْبَةِ الْأَمْرَاءِ، وَتَلَقَّيْتُ فُنُونَ الرِّمَائَةِ وَضُرُوبَ الْحَرْبِ مَعَ أَبْنَائِهِمْ. وَكَانَ الْأَمِيرُ «دُرُويَادًا» أَصْدَقَ خُلصَائِي، وَأَكْرَمَ أَصْفِيَائِي. وَقَدْ أَصْبَحَ ذَلِكَ الْأَمِيرُ مَلِكًا «الْبُنْعَالِ» وَلَا يَزَالُ مَلِكًا عَلَيْهَا إِلَى الْآنِ. وَقَدْ تَحَالَفْنَا مِنْذُ تَعَارَفْنَا عَلَى الْوَفَاءِ جَمِيعًا، وَأَقْسَمْنَا عَلَى أَنْ يَكُونَ كِلَانَا عَوْنًا لِصَاحِبِهِ فِي الضَّرَائِ وَالسَّرَائِ عَلَى



السَّوَاءِ. وَمَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ أَعْوَامٌ، ثُمَّ أَتَتْهُ الرُّهْدُ، فَعَكَفَتْ عَلَى الْعِبَادَةِ زَمَنًا، وَاخْتَرَتْ الْعُزْلَةَ،
فَعِشْتُ كَمَا يَعِيشُ النَّسَّاكُ فِي الْغَايَةِ، وَقَضَيْتُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْوَادِعَةَ رَدًّا مِّنَ الزَّمَنِ.

ثُمَّ رَغِبْتُ فِي الْحَيَاةِ الرَّوْحِيَّةِ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ رُزِقْتُ طِفْلاً مَلَأَ الدُّنْيَا عَيِّ بِهَجَّةً وَسَعَادَةً. فَحَبَبْتُ إِلَيَّ الْعُودَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ بَعْدَ أَنْ طَالَ أَنْسِي بِحَيَاةِ الْغَايَةِ! وَلَوْلَا غُلَامِي لَمَا فَكَّرْتُ فِي الْاِخْتِلَاطِ بِالنَّاسِ وَاسْتِثْنَاكِ حَيَاتِي الْأُولَى.

وَكَانَ «دُرُوبَادَا» أَوَّلَ مَنْ قَصَدْتُ لِأَسْأَلَهُ الْمَالَ وَالْكِسَاءَ. وَلَعَلَّكَ تَسْأَلُنِي: أَيُّ مَوْرِدٍ كُنْتُ أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى تَحْصِيلِ قُوَّتِي فِي الْغَايَةِ؟! فَإِلَيْكَ جَوَابِي: لَقَدْ كَانَ طُلَّابُ الرِّمَايَةِ يَفْدُونَ عَلَى الْغَايَةِ لِيَتَلَقَّوْا عَنِّي فُنُونَهَا، وَكُنْتُ أَجِدُ فِي تَدْرِيبِهِمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ أَنْوَاعِ السَّلَاحِ سُرُورًا عَظِيمًا وَشَحْدًا لِمَوْهَبَتِي الَّتِي اخْتَصَّنِي بِهَا اللَّهُ، حَتَّى لَا تَتَعَطَّلَ كِفَايَتِي، فَإِنَّ الْعِلْمَ يُفْقَدُ بِالتَّرْكِ، وَالسَّيْفَ الْقَاطِعَ إِذَا بَطَلَ اسْتِعْمَالُهُ وَطَالَ إِهْمَالُهُ عِلَاهُ الصَّدَأُ، وَدَبَّ إِلَى مَعْدِنِهِ الْفَسَادُ. كَانَ هَذَا مَصْدَرِ عَيْشِي فِي الْغَايَةِ، قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى «دُرُوبَادَا» مَلِكِ «الْبَنْغَالِ».

أَتَعْرِفُ كَيْفَ لَقِينِي صَدِيقِي الْوَفِيُّ الْكَرِيمُ؟ بِالسُّخْرِيَّةِ وَالْاِحْتِقَارِ قَابِلِنِي، وَبِالْمَهَانَةِ وَالطَّرْدِ شَيْعَنِي، وَبِالنُّسُكِ وَالْفَقْرِ عَيْرَنِي.

وَإِذَا حَسَرْتَاهُ! شَدَّ مَا تَنَكَّرَ لِي وَامْتَهَنَ حُبِّي، وَتَعَالَى عَلَيَّ وَاحْتَقَرَ صِدَاقَتِي، زَاعِمًا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ «دُرُونًا»، كَمَا زَعَمَ أَنَّ جَلَالَ الْمُلْكِ لَا يَتَّفِقُ مَعَ حَقَارَةِ الْفَقْرِ، وَأَنَّ مِنَ الصَّفَاقَةِ وَالْغُرُورِ وَالْحِمَاقَةِ، أَنْ يَطْمَعَ صُغْلُوكُ فِي مُصَاحَبَةِ الْمُلُوكِ.

كَذَلِكَ قَالَ «دُرُوبَادَا»، فَلَا تَعْجَبْ — يَا سَيِّدِي — إِذَا امْتَلَأَتْ نَفْسِي احْتِقَارًا لِهَذَا الْغَايِرِ. وَلَا تَدْهَشْ إِذَا عَاهَدْتُ نَفْسِي عَلَى تَأْدِيبِهِ، وَأَقْسَمْتُ لِأُخَفِّفَ مِنْ غُلُوَائِهِ، وَلَا أُذِلَّنَّ مِنْ كِبْرِيَائِهِ، وَلَا أُجْعَلَنَّهَ لَا يَذْكَرُ اسْمِي مَدَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْبُكَاءِ وَالْأَسْفِ، وَالْحَسْرَةِ عَلَى مَا جَرَّهُ إِلَيْهِ الْغُرُورُ وَالصَّلْفُ.

لَقَدْ وَهَبْتُ حَيَاتِي لِهَذِهِ الْغَايَةِ. فَأَنَا اسْتَيْقِظُ مَعَ الْفَجْرِ — فِي كُلِّ يَوْمٍ — لِتَدْرِيبِ الطُّلَّابِ عَلَى الرِّمَايَةِ، وَتَلْفِينِهِمْ أُصُولَهَا. وَمَا إِنَّ عَلِمْتُ بِرَغْبَتِكَ فِي تَنْقِيفِ حَفَدَتِكَ، حَتَّى وَاصَلْتُ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ، لِكَيْ أَبْلُغَ حَاضِرَةَ مُلْكِكَ، لِتَحْقِيقِ هَدْفِكَ، وَإِنْجَازِ رَغْبَتِكَ..

(١١) مُعَلِّمُ الْحَفَدَةِ

فَأَجَابَهُ «بِهِشْمَا» قَائِلًا:

«شُكْرًا لَكَ أَيُّهَا النَّاسُكَ الْجَلِيلُ. الْآنَ تَهْدَأُ بَالًا وَتَقْرُ عَيْنًا، فَأَنْتَ لِحَفَدَتِي — مِنْذُ الْيَوْمِ — فِي مَرْتَبَةِ الْوَالِدِ وَمَنْزِلَةِ الْأُسْتَاذِ، وَسَتَعِيشُ فِي قَصْرِي مُؤَفَّرَ الْإِعْزَازِ وَالْإِجْلَالِ.

لَقَدْ سَاقَتَكَ الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِتَدْرِيْبِ أَنْبَاءِ: الضَّرِيْرِ وَالشَّهِيدِ، بَعْدَ أَنْ طَالَ بِهِمُ الشَّوْقُ، وَجَهَدَهُمُ الْبَحْثُ عَنِ مَدْرَسِ كُفَاءٍ بَارِعٍ فَكُلَّلَ سَعْيَهُمْ بِالنَّجَاحِ.»

فَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ التَّالِي، ذَهَبَ النَّاسُكَ «دُرُونًا» مَعَ الْأَمْرَاءِ إِلَى بُقْعَةٍ فَسِيحَةٍ فِي الْغَابَةِ، وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَجْلِسُوا حَوْلَهُ عَلَى هَيْئَةِ دَائِرَةٍ. ثُمَّ سَأَلَهُمْ فِي لَهْجَةٍ جَادَةٍ حَازِمَةٍ:

«لَقَدْ التَّقَّتْ رَغْبَاتِكُمْ فِي هَدَفٍ وَاحِدٍ، هُوَ الْفُوقَانُ عَلَى جَمِيعِ أَمْرَاءِ الْهِنْدِ فِي فُنُونِ الْحَرْبِ، وَالتَّمَرُّسِ بِمُخْتَلِفِ أَسْلِحَتِهَا وَعَتَادِهَا. وَقَدْ أَخَذْتُ نَفْسِي بِتَحْقِيقِ مَطْلِبِكُمْ الْجَلِيلِ، ذَلِكَ عَهْدٌ عَلَيَّ وَمِيثَاقٌ.

وَقَدْ بَقِيَ لِي مَطْلَبٌ وَقَفْتُ مَا بَقِيَ مِنْ حَيَاتِي عَلَى تَحْقِيقِهِ؛ فَهَلْ تَعَاهَدُونَنِي عَلَى الْوَفَاءِ بِذَلِكَ مَتَى جَدَّ الْحَدُّ؟»

وَمَا إِنْ سَمِعَ الْأَمْرَاءُ قَوْلَهُ، حَتَّى دَبَّ الْهَلَعُ إِلَى نَفُوسِهِمْ، وَارْتَسَمَ الْفَرْعُ عَلَى أَسَارِيرِهِمْ، بَعْدَ أَنْ جَهَلُوا مَا يَعْنِيهِ، فَعَقَدَ الدَّهْشَ وَالْحَيْرَةَ أَلْسِنَتَهُمْ.

وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا دَوَى صَوْتُ عَالِي النُّبْرَاتِ، وَهُوَ صَوْتُ «أَرْجُونًا»: أَوْسَطِ أَنْبَاءِ الشَّهِيدِ، يُجَلِّجِلُ فِي حِمَاسَةٍ وَقُوَّةٍ، مُلَبِّبًا دَعْوَةَ أُسْتَاذِ الرِّمَامِيَّةِ، مُعَلِّنًا فِي غَيْرِ تَهَيُّبٍ وَلَا تَرَدُّدٍ، أَنْ يَقِفَ حَيَاتَهُ كُلَّهَا عَلَى نُصْرَةِ أُسْتَاذِهِ وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ.

وَرَأَهُ النَّاسُكَ يَقْفِزُ مُتَّجِهًا إِلَيْهِ، وَهُوَ يَنْطِقُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْفِيَاضَةِ بِالصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ، فَاذْفَعُ يُعَانِقُهُ فِي لَهْفَةٍ وَابْتِهَاجٍ.

وَهَكَذَا تَوَثَّقَتْ أَوَاصِرُ الْمَوَدَّةِ بَيْنَ الْأُسْتَاذِ الْكَبِيرِ وَالْبَطَلِ الصَّغِيرِ، فَلَمْ يَأَلُ جَهْدًا فِي تَعَهُدِهِ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ خَيْرَةٍ وَدُرِيَّةٍ وَمَهَارَةٍ؛ كَمَا يَتَعَهُدُ الْوَالِدُ وَلَدَهُ، وَرَاحَ يُؤَثِّرُهُ بِصَادِقِ عَطْفِهِ، وَيَفْضَلُهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَمْرَاءِ.

وَكَانَ الْأَمِيرُ الْفَتَى حَرِيصًا عَلَى التَّعَلُّمِ؛ فَلَمْ يُضِعْ لَفْظًا وَاحِدًا — تَنْطِقُ بِهِ شَفَاتُهُ — إِلَّا حَفِظَهُ وَوَعَاهَهُ.

وَلَمْ يَلْبَثِ الْفَتَى أَنْ حَدَقَ فُنُونََ الْحَرْبِ وَبَرَعَ فِي أَسَالِيبِ الرِّمَامِيَّةِ كُلِّهَا، وَفَاقَ فِيهَا جَمِيعَ إِخْوَانِهِ، وَسَارَ فِي ذَلِكَ سِيرَةَ أُسْتَاذِهِ فِي تَعَهُدِ قَوْسِهِ وَسَهَامِهِ.



وَذَاتَ يَوْمٍ ظَلَّ الْأُسْتَاذُ يُمَرِّنُ الْأَمْرَاءَ فِي الْغَابَةِ، حَتَّى حَلَّ ظِلَامُ اللَّيْلِ — وَهُمْ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنَ الْقَصْرِ — فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْلِسُوا، وَقَدَّمَ لِكُلِّ مِنْهُمْ قَلِيلًا مِنَ الرُّزِّ وَالْفَاكِهَةِ، حَتَّى لَا يَهْلِكُوا جُوعًا بَعْدَ أَنْ جَهَدَهُمُ التَّعَبُ طُولَ النَّهَارِ.

(١٢) نَجْوَى «أَرْجُونَا»

وَلَمَّا انْتَهَى «أَرْجُونَا» مِنَ الطَّعَامِ، طَافَ بِذَهْنِهِ خَاطِرٌ جَدِيدٌ، فَرَاحَ يُسَائِلُ نَفْسَهُ مُتَعَجِّبًا. «لَقَدْ أَكَلْتُ طَعَامِي اللَّيْلَةَ فِي ظِلَامِ دَامِسِ، وَكَانَتْ يَدَيَّ تَمْتَدُّ إِلَى الرَّادِ، ثُمَّ تَحْمِلُهُ إِلَيَّ فَمَيَّ فِي يُسْرِ وَسُهُولَةٍ.

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنْ يَتِمَّ هَذَا، دُونَ أَنْ أُسْتَعِينَ بِعَيْنِي. وَكَانَ السَّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ يَدِي قَدْ مَرَّتْ عَلَى حَمْلِ الطَّعَامِ إِلَى فَمِي، وَأَلْفَتْ ذَلِكَ وَتَعَوَّدْتُهُ زَمَانًا طَوِيلًا.
فَمَا بَالُ يَدِي لَمْ تَتَعَوَّدْ إِلَى الْآنِ أَنْ تَشُدَّ الْقَوْسَ وَتَرْمِيَ السَّهْمَ، لِتُصِيبَ الْهَدَفَ — مُكْتَفِيَةً فِي إصَابَتِهِ بِالْأَدْنِ — دُونَ حَاجَةٍ إِلَى الْعَيْنِ؟ لِمَاذَا لَا أُسْتَعْنِي بِسَمَاعِ الصَّوْتِ عَنْ رُؤْيَةِ مَصْدَرِهِ؟»

وَهَكَذَا بَدَأَ تَدْرِيْبُهُ عَلَى الصَّيْدِ فِي الظَّلَامِ، فَرَاحَ يُصَوِّبُ سَهَامَهُ إِلَى الطُّيُورِ الْمُغْرَدَةِ عَلَى غُصُونِ الْأَشْجَارِ الْعَالِيَةِ، مُكْتَفِيًا بِصَوْتِهَا، مُسْتَعِينًا بِتَغْرِيدِهَا عَنْ رُؤْيَتِهَا.

(١٣) فَرْحَةُ الْأُسْتَاذِ

وَسَمِعَ «دُرُونًا» رَيْنَ الْقَوْسِ — وَهِيَ تَرْمِي بِالسَّهْمِ فَادْرَكَ مَا جَالَ بِخَاطِرِ تَلْمِيْذِهِ.
فَانْدَفَعَ إِلَيْهِ يَشُدُّ عَلَى يَدِهِ مُهْنًا، وَيَقُولُ لَهُ مُتَحَمِّسًا: «إِنَّ اسْمَ «أَرْجُونَا» وَشَيْكَ أَنْ يُدْوِي فِي الْآفَاقِ، وَيُصْبِحُ أَعْظَمَ مَنْ رَمَى بِالسَّهَامِ!»
وَكَانَ الْأَمِيرُ الْفَتَى «دُرَيْدُهُانَا» عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمَا، وَكَانَ قَلْبُهُ مُفْعَمًا بِالْحَقْدِ عَلَى ابْنِ عَمِّهِ، لِمَا مَيَّرَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ بَرَاعَةِ خَارِقَةِ (فَائِقَةِ).

فَلَمَّا سَمِعَ نِثَاءَ مُعَلِّمِ الرَّمَايَةِ عَلَيْهِ، كَادَ الْحَسَدُ يُزْهِقُ رُوحَهُ الشَّرِيْرَةَ الْخَبِيْثَةَ، فَرَاحَ يَحْرُقُ الْأَرْمَ (يَحْكُ أَضْرَاسَهُ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ)، شَانُ ضِعَافِ النُّفُوسِ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ، الَّذِينَ يَقْعُدُ بِهِمُ الْعَجْزُ عَنْ إِحْرَازِ قَصَبِ السَّبْقِ، فَلَا يَجِدُونَ وَسِيْلَةً لِشِفَاءِ صُدُورِهِمْ غَيْرَ الْكَيْدِ وَالِدَّسِّ وَالْوَقِيْعَةِ.
وَأَقْبَلَ الْفَتَى عَلَى نَفْسِهِ يُخَاطِبُهَا قَائِلًا:

«لَيْتَ أَعْجَزْتَنِي مُبَارَاةَ هَذَا الْبَارِعِ الْفَدَى، لَمْ يُعْجِزْنِي أَنْ أَهْتَدِيَ إِلَى مَنْ يُنَافِسُهُ وَيَقْفِرُهُ وَيُرِيْحُنِي مِنْهُ. نَعَمْ يُرِيْحُنِي مِنْهُ، فَلَنْ يَطِيْبَ لِي الْعَيْشُ مَا دَامَ هَذَا الْفَتَى عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ!».
وَهَكَذَا نَمَتْ أَحْقَادُ الْحَاسِدِ، وَتَأَجَّجَتْ نيرانُ الْغَيْْرَةِ فِي صَدْرِهِ، كَلَّمَا رَأَى بَرَاعَةَ مُنَافِسِهِ تَرْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

كَانَ «بِهَشْمًا» قَدْ وَكَلَ إِلَى «دُرُونًا» — مُعَلِّمِ الرَّمَايَةِ — تَعْلِيمَ حَفَدَتِهِ — كَمَا عَلِمَتْ — وَلَكِنْ شُهْرَةٌ «دُرُونًا» وَذِيوعَ صِيْتِهِ جَذَبَا إِلَيْهِ كَثِيرًا مِنْ أُمَرَاءِ الْمَمَالِكِ الْمُجَاوِرَةِ الْأُخْرَى.

وَقَدْ أَدْرَنَ لَهُ الْمَلِكُ فِي تَعْلِيمِهِمْ مَعَ حَفَدَتِهِ، وَهُوَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ بَرَاعَةِ حَفَدَتِهِ وَفَوْزِهِمْ عَلَى كُلِّ مُنَافِسٍ.

وَكَانَ بَيْنَ الرَّائِرِينَ الْجُدُدِ صَبِيٍّ يُسَمَّى «كَرْنَا» تَلَوُّحٌ عَلَى أَسَارِيرِهِ (خُطُوطٌ جَبِينِهِ) سَمَاتُ الْإِمَارَةِ وَالنَّبْلِ، وَرَجَاحَةُ الْعَقْلِ، وَإِنْ كَانَ مَجْهُولَ الْأَبْوَيْنِ.

وَكَانَتْ تَبْدُو فِي نَظَرَاتِهِ الْحَزِينَةِ الْهَادِيَّةِ مَعَانَ غَيْرُ وَاضِحَةِ الْمَعَالِمِ. وَقَدْ رَضِيَهُ الْأُمَرَاءُ زَمِيلًا لَهُمْ حِينَ رَأَوْا مُعْلَمَ الرَّمَايَةِ يُحَسِّنُ اسْتِقْبَالَهُ، وَيُكْرِمُ وَفَادَتَهُ، وَيَخْتَصُّهُ بِعَطْفِهِ؛ وَلَمْ يَبْعَرَضُوا لَهُ بِسُوءٍ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ فِيهِ ظُنُونُهُمْ، وَتَبَايَنْتْ آرَاؤُهُمْ.

وَقَدْ تَجَلَّتْ بَرَاعَتُهُ مِنْذُ قُدُومِهِ، وَلاَحَتْ نَجَابَتُهُ وَدُرْبَتُهُ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ السَّلَاحِ.

وَكَانَ مِثَالَ الطَّالِبِ الْجَادِّ: يُحَسِّنُ الاسْتِمَاعَ إِلَى مَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ فِي انْتِبَاهِهِ وَيَقْطَعُ دَائِمِينَ، فَلَا تَقُوتُهُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَا تَعْرُزُ عَنْهُ (لَا تَقْلُتُ مِنْهُ) إِشَارَةٌ أَوْ حَرَكَةٌ.

فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ فَاقَ أَصْحَابَهُ، وَبَدَّ رِفَاقَهُ، وَاجْتَمَعَ الرَّأْيِيُّ عَلَى أَنَّ بَرَاعَتَهُ لَا تَقَلُّ عَنْ بَرَاعَةِ «أَرْجُونَا» نَفْسِهِ.

وَهَكَذَا بَدَأَ التَّنَافُسُ الْحَمِيدُ بَيْنَ الْبَطْلَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ.

وَرَأَى الْفَتَى الْحَاسِدُ «دُرَيْدَهَانَا» كَبِيرَ أَبْنَاءِ «الضَّرِيرِ» فُرْصَةً لِلْكَئِيدِ لِمُنَافِسِهِ. فَرَاخَ يَتَقَرَّبُ إِلَى «كَرْنَا» وَيَعْمُرُهُ بِالتَّنَاءِ وَالْعَطَاءِ.

وَقَدْ أَهْدَى إِلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ كَيْسَ نَقُودٍ مُطَرَّرًا بِالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُدِ، كَمَا أَهْدَى إِلَيْهِ فِيلاً صَغِيرًا وَصَنْدُوقًا ثَمِينًا مِنَ الْإِبْنُوسِ، نَقَشَتْ عَلَيْهِ بَدَائِعُ لَا تُحْصَى، فَإِذَا فُتِحَ فَاحَ مِنْهُ عِطْرٌ ذَكِيٌّ يَنْعِشُ الْأَرْوَاحَ وَيُبْهِجُ النُّفُوسَ.

وَهَكَذَا اسْتَجَلَبَ مَوَدَّةَ «كَرْنَا» وَاسْتَسَبَّ صِدَاقَتَهُ. ثُمَّ رَاحَ يُعْمَلُ الْحِيلَةَ لِإِذْكَاءِ نَارِ الْحَقْدِ بَيْنَ «كَرْنَا» وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّهِ «أَرْجُونَا»، وَيَفْتَنُّ فِي تَحْوِيلِ الْمُنَافَسَةِ الشَّرِيفَةِ إِلَى حُصُومَةٍ عَنيفَةٍ.

وَقَدْ أَحْفَقَ فِيهَا هَدَفَ لَهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْأَسْ مِنْ بُلُوغِ مَآرِبِهِ الْحَبِيثِ.

وَرَأَى الطَّلَابُ أَنَّ الْفَتَى الصَّامِتَ كَانَ يَقُلُّ كَلَامَهُ مَعَ أَبْنَاءِ «الشَّهِيدِ» وَيَكْتُرُ مَعَ أَبْنَاءِ «الضَّرِيرِ»، وَزَادَ ذَلِكَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

(١٤) یَوْمُ الامْتِحَانِ

وَمَرَّتِ الْاِیَّامُ تَبَاعًا، ثُمَّ خَطَرَ لِمُعَلِّمِ الرِّمَایَةِ أَنْ یَمْتَحِنَ طُلَّابَهُ، فَجَمَعَهُمْ فِی مَیْدَانٍ فَسَیِّحٍ، وَأَخْصَرَ مَعَهُ تِمَثَالًا صَنَعَهُ عَلَى هِیئَةِ طَائِرٍ، وَتَبَّتَهُ فِی رَأْسِ شَجَرَةٍ عَلِیَّةٍ. ثُمَّ قَالَ لِطُلَّابِهِ: «قِفُوا عَلَى مَسَافَةِ ثَلَاثِینَ خُطْوَةً، وَتَأَهَّبُوا (اسْتَعِدُّوا) لِلرِّمَایَةِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَلِیَكُنْ رَأْسُ هَذَا الطَّائِرِ هَدَفَ رِمَایَتِكُمْ جَمِیعًا. صَوِّبُوا اِلَیْهِ سِهَامَكُمْ، وَحَاولُوا أَنْ تُحَطِّمُوهُ.»

وَتَأَهَّبَ الْجَمِیعُ لِتَنْفِیذِ اِشَارَةِ الْأُسْتَاذِ، وَصَوَّبُوا اِلَیْهِ سِهَامَهُمْ، وَنَفَّسَهُمْ ثَائِرَةٌ یَسُودُهَا الاضْطِرَابُ وَالْقَلَقُ. وَاسْتَأْنَفَ «دُرُونَا» قَائِلًا:

«لِیَكُنْ أَوَّلُ الرُّمَّةِ أَكْبَرَ الْأُمْرَاءِ سَنًا.»

فَوَقَّفَ «دُرُیْدَهَانَا» رَافِعًا قَوْسَهُ. فَصَاحَ بِهِ الْأُسْتَاذُ قَائِلًا: «خَبِّرْنِي بِمَا تَرَاهُ أَيْهَا الْأَمِیرُ: أَتَرَى الطَّیْرَ؟»

فَأَجَابَهُ: «نَعَمْ أَرَاهُ.»

فَقَالَ مُعَلِّمُ الرِّمَایَةِ: «أُرِیدُ أَنْ تَنَوَّخِيَ الدَّقَّةَ فِیْمَا تَقُولُ؛ فَتَخْبِرْنِي بِمَا تَرَى: إِيَّایَ؟ أَمْ أَصْحَابَكَ؟ أَمْ الشَّجَرَةَ؟ أَمْ الطَّیْرَ؟»

فَأَجَابَهُ: «أَرَاهُمْ جَمِیعًا.»

فَقَالَ الْأُسْتَاذُ: «ضَعِ الْقَوْسَ يَا فَتَى، وَتَنَحَّ جَانِبًا، فَمَا أَنْتَ بِقَادِرٍ عَلَى الْمُنَافَسَةِ.»

فَتَنَحَّى «دُرُیْدَهَانَا» وَقَدَّ عَمَرَهُ الْحَجَلَ لِمَا مُنِيَ بِهِ مِنْ إِخْفَاقٍ، وَلَمْ یَدْرِ مَاذَا أَغْضَبَ مُعَلِّمَ الرِّمَایَةِ فِی كَلَامِهِ.

وَنَادَى الْمُعَلِّمُ تَلَامِیذَهُ: وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَأَعَادَ عَلَيْهِمْ سُؤَالَهُ، فَلَمْ یَخْتَلِفْ جَوَابُ أَحَدِهِمْ عَنْ سَابِقِهِ، كُلُّهُمْ قَالَ:

«نَعَمْ نَرَاكَ وَنَرَى أَصْحَابَنَا وَنَرَى الشَّجَرَةَ وَنَرَى الطَّائِرَ عَلَى قِمَّتِهَا.»

وَهَكَذَا تَنَحَّى الْجَمِیعُ، وَلَمْ یَبْقَ إِلَّا الْمُتَبَارِیَانِ الْبَارِعَانِ: «كِرْنَا» وَ«أَرْجُونَا». وَارْتَسَمَ الْحُزْنُ عَلَى وَجْهِ الْمُعَلِّمِ، وَغَصَّتْ عَیْنَاهُ بِالْأَدْمُوعِ، لِمَا رَأَاهُ مِنْ إِخْفَاقِ طُلَّابِهِ فِی هَذَا الْاِخْتِبَارِ السَّهْلِ، فَصَاحَ غَاظِبًا: «وَاحَسْرَتَاهُ. لَقَدْ ضَاعَ مَا بَدَلْتُ خِلَالَ الْأَشْهُرِ الطَّوَالِ! مَا أَتَعَسَ النَّتِیجَةَ، وَمَا أَضْبَحَ الْجُهْدَ! تَعَالَ يَا «كِرْنَا» فَقَدْ یُصِيبُ الْهَدَفَ سَهْمُكَ، أَوْ یُصِيبُ سَهْمُ «أَرْجُونَا»، أَوْ یَدْفِنُ مُعَلِّمَكُمْ سِهَامَهُ فِی الْغَايَةِ، وَیَعْلُنُ عَجْرَهُ وَإِخْفَاقَهُ لِلْمَلِیْكَ، إِذَا خَابَ أَمَلُهُ فِیْكُمْ.»

فَرَفَعَ «كَرْنَا» قَوْسَهُ، وَسَدَّهَا إِلَى الْهَدَفِ، مُتَوَنِّبًا لِتَنْفِيذِ إِشَارَتِهِ.
فَسَأَلَهُ الْأُسْتَاذُ: «مَاذَا تَرَى؟»

فَأَجَابَهُ: «أَرَى الطَّائِرَ وَالشَّجَرَةَ يَا سَيِّدِي.»

فَقَالَ لَهُ أُسْتَاذُهُ: «تَنَحَّ جَانِبًا فَقَدْ خَابَ الْأَمَلُ فِيكَ.

تَعَالَ يَا «أَرْجُونَا» وَخَبِّرْنِي أَنْتَ أَيْضًا: أَتَرَى الشَّجَرَةَ وَالطَّائِرَ وَأُسْتَاذَكَ وَأَصْحَابَكَ؟»
فَابْتَدَرَهُ قَائِلًا:

«كَلَّا، لَا أَرَى الطَّائِرَ وَلَا الشَّجَرَةَ وَلَا الْعُصْنَ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَكَ، بَلْ أَنَا أَرَى رَأْسَ
الطَّائِرِ وَحَدَّهُ!»

فَقَالَ «دُرُونَا» بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «صِفْ لِي الطَّائِرَ.»

فَأَجَابَهُ عَلَى الْفُورِ: «هَيْهَاتَ ذَلِكَ هَيْهَاتَ. إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ رَأْسِ.»

فَصَاحَ الشَّيْخُ مُبْتَهَجًا: «أَطْلِقْ عَلَيْهِ سَهْمَكَ.»

وَسُرِعَانَ مَا أَنْطَلَقَ السَّهْمُ، فَفَصَلَ رَأْسَ الطَّائِرِ عَنْ جَسَدِهِ.

وَأَنْدَفَعَ «دُرُونَا» يُبَدِّدُ بِطُلَّابِهِ الْخَائِبِينَ قَائِلًا:

«مَا أَشَدَّ ضَلَالَتَكُمْ وَأَوْفَرَ عِبَاوَتِكُمْ! أَلَمْ أُخْبِرْكُمْ أَنْ إِصَابَةَ الْهَدَفِ لَا تَتَّاحُ إِلَّا لِمَنْ يُرَكِّزُ
اِنْتِبَاهَهُ فِيهِ، وَيُنَبِّتُ عَيْنَيْهِ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ هَدَفِهِ، خَابَتْ أَحْلَامُهُ، وَطَاشَتْ
سِهَامُهُ.»

حَبْرُونِي أَيُّهَا الْقِرَدَةُ الْمُقَلِّدُونَ: كَيْفَ اسْتَطَاعَتْ أَعْيُنُكُمْ أَنْ تَرَى شَيْئَيْنِ، بَلْهُ ثَلَاثَةٌ أَوْ
أَرْبَعَةٌ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ؟ حَفِظَ اللَّهُ «أَرْجُونَا» وَرَعَاهُ. لَقَدْ رَأَى شَيْئًا وَاحِدًا وَلَمْ يُبْصِرْ سِوَاهُ،
فَلَمْ يُخْطِئْهُ سَهْمُهُ وَلَا عَدَاهُ.»

وَهُنَا تَحَقَّقَ لِلطُّلَّابِ ضَلَالٌ إِجَابَتِهِمْ، وَأَنْطَلَقُوا يُصَفِّقُونَ لِلشُّجَاعِ ابْنِ «الشَّهِيدِ» فِي
حَمَاسَةٍ مُلْتَهَبَةٍ.

أَمَّا الْفَتَى الْحَسُودُ «دُرَيْدُهَانَا» فَقَدْ سِيءَ وَجْهُهُ؛ فَانْتَحَى بِصَاحِبِهِ «كَرْنَا» جَانِبًا، وَأَسْرَرَ
إِلَيْهِ مُسَائِلًا:

«أَيْرِضِيكَ أَنْ يَخْفِضَ هَذَا الْفَتَى مِنْ قَدْرِنَا وَيَغْلِبَنَا عَلَى أَمْرِنَا! تَرَى كَيْفَ وُقِفَ إِلَى
إِجَابَتِهِ السَّدِيدَةِ؟ إِنَّ «دُرُونَا» يَخْتَصُّهُ بِعَطْفِهِ وَعِنَايَتِهِ؛ فَهَلْ تَرَاهُ لَقَنَهُ الْإِجَابَةَ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ
الْاِحْتِبَارَ؟»



فَأَجَابَهُ «كَرْنَا»: «كَلَّا لَا تُسَيِّ الظَّنَّ بِأُسْتَاذِنَا أَيُّهَا الأَمِيرُ، وَمَعَاذَ اللهُ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الحِيلَةِ.

كُنْ عَلَى ثِقَةٍ أَنْ «أَرْجُونَا» قَدْ فَازَ عَلَيْنَا بِجِدَارَةٍ وَعَدَلٍ.

وَلَكِنْ صَبْرًا، فَلَنْ يَرِيحَ فِي المُبَارَاةِ التَّالِيَةِ.»

وَضَاعَفَ «كَرْنَا» — مِنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ — عِنَايَتَهُ وَاهْتِمَامَهُ، وَرَاحَ يُوَاصِلُ التَّدْرِيبَ نَهَارًا، وَمُطَالَعَةَ الكُتُبِ لَيْلًا، لِيَتَعَرَّفَ مُخْتَلِفَ الأَسْلِحَةِ.

وَكَانَتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ لَا تُعَوِّفُهُ عَنِ مُوَاصَلَةِ التَّمْرِينِ. وَكَانَ يُؤَثِّرُ النَّعَبَ عَلَى الرُّاحَةِ فِي سَبِيلِ الفَوْزِ بِطَلَبَتِهِ، وَيَسْهَرُ اللَّيْلَ وَإِخْوَانُهُ نِيَامُ.

صِرَاعُ الْأَخْوَيْنِ

وَهَكَذَا امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ الطَّاهِرَةَ بِمَا بَنَى الْأَمِيرُ الْحَسُودُ فِيهَا مِنْ سُمُومٍ وَأَحْقَادٍ، وَأَفْعَمَ قَلْبَهُ النَّقِيِّ بِمَا غَرَسَهُ مِنْ بُغْضٍ وَكَرَاهِيَةٍ لِأُسْرَةِ «الشَّهِيدِ» الْكَرِيمَةِ.

الفصل الثاني

قَصْرُ الْهَالِكِ

(١) بَعْدَ سَنَوَاتٍ ثَلَاثٍ

وَمَضَتْ عَلَى «دُرُونَا»: مُعَلِّمِ الرَّمَايَةِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ — بَدَلَ خِلَالَهَا كُلِّ مَا فِي وَسْعِهِ مِنْ بَرَاعَةٍ وَخِبْرَةٍ وَجُهْدٍ — فِي تَعْلِيمِ الْأَمْرَاءِ وَتَدْرِيْبِهِمْ.
وَاخْتَصَّ «أَرْجُونَا» بِمَوْفُورِ عَطْفِهِ وَرِعَايَتِهِ، كَمَا اخْتَصَّ «أَرْجُونَا» بِصَادِقِ إِخْلَاصِهِ وَمَوَدَّتِهِ.

فَلَمَّا اكْتَمَلَتْ مَوَاهِبُ طُلَّابِهِ، وَأَصْبَحُوا أَهْلًا لِتَحْقِيقِ مَا أَعَدَّهُمْ لَهُ، ذَهَبَ إِلَى «بِهَشْمَا» وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِمَا كَانَ يُضْمِرُهُ فِي نَفْسِهِ، فَلَقِيَ مِنْهُ أَكْرَمَ تَأْيِيدٍ.
فَلَمَّا اطْمَأَنَّ النَّاسُ إِلَى نُصْرَةِ الْمَلِكِ، جَمَعَ طُلَّابَهُ وَقَالَ:

«لَقَدْ بَدَلْتُ فِي تَعْلِيمِكُمْ جُهْدِي، وَلَمْ أَقْصِرْ — خِلَالَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ الثَّلَاثِ فِي إِعْدَادِكُمْ لِحَوْضِ الْمَعَارِكِ الْحَاسِمَةِ، وَتَدْرِيْبِكُمْ عَلَى مُخْتَلَفِ الْأَسْلِحَةِ الْفَاتِكَةِ، وَإِمْدَادِكُمْ بِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ قَادَةُ الْحَرْبِ مِنْ بَارِعِ الْأَسَالِيْبِ، وَمُبْتَكِرِ الْخُطَطِ الْكَفِيْلَةِ بِالظَّفْرِ عَلَى الْعَدُوِّ وَقَهْرِهِ، وَتَفْرِيقِ مَا تَجَمَّعَ مِنْ حَشْدِهِ، وَالانْقِضَاضِ عَلَيْهِ وَمُبَاغَتَتِهِ (مُفَاجَأَتِهِ) فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ، كَمَا يُبَاغِتُ الْقَضَاءُ مَنْ يُرِيدُهُ بِالتَّوَاءِ (الْهَالِكِ). وَقَدْ عَلَّمْتُكُمْ — طَوَالَ هَذِهِ الْأَعْوَامِ الثَّلَاثَةِ — لَمْ أَبْتَغِ عَلَى ذَلِكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا.

وَقَدْ أَنْ لَكُمْ أَنْ تُبَادِلُونِي جَمِيْلًا بِجَمِيْلٍ، وَإِحْسَانًا بِإِحْسَانٍ. وَاعْلَمُوا أَنَّي لِهَذَا الْيَوْمِ أَعَدَدْتُكُمْ وَادَّخَرْتُكُمْ. فَلَا تَتَوَانُوا فِي جَمْعِ جُمُوعِكُمْ، وَحَشْدِ أَعْوَانِكُمْ، لِتَأْدِيْبِ مَلِكِ «الْبَنْغَالِ» عَلَى مَا أَسْلَفَهُ إِلَى أُسْتَاذِكُمْ مِنْ غَدْرِ وَإِهَانَةٍ، وَمَا أَلْحَقَهُ بِهِ مِنْ زِرَايَةٍ وَمَهَانَةٍ.»

(٢) الْقَائِدُ الْمِنْهَزِمُ

وَمَا إِنْ سَمِعَ الْأَمْرَاءُ خِطَابَ أَسْتَاذِهِمْ، حَتَّى التَّهَبَّتْ حِمَاسَتُهُمْ لِنُصْرَتِهِ، وَحَشَدُوا أَنْصَارَهُمْ وَأَسْلَحَتَهُمْ؛ وَشَدُّوا — إِلَى مَرْكَبَاتِهِمُ الْحَرَبِيَّةِ — جِيَادَهُمْ، وَأَنْدَفَعُوا يَتَسَابِقُونَ إِلَى حَاضِرَةِ «الْبَنْغَالِ».

وَمَا زَالُوا يَجِدُونَ فِي السَّيْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، حَتَّى بَلَّغُوا حُدُودَ الْمَمْلَكَةِ، فَدَخَلُوهَا، بَعْدَ أَنْ أَوْهَمُوا حُرَّاسَهَا أَنَّهْمُ قَدِمُوا لِتَحِيَّةِ مَلِكِ «الْبَنْغَالِ».

وَمَا إِنْ بَلَّغُوا حَاضِرَةَ الْبِلَادِ حَتَّى يَمَّمُوا سَاحَةَ الْقَصْرِ، وَقَدْ شَهَرُوا أَسْلِحَتَهُمْ وَأَعَدُّوا قَسِيَّهُمْ، مُسْرِعِينَ لِمَبَاغَتِهِ «دُرُويَادَا» وَأَسْرَهُ، قَبْلَ أَنْ يَفْطِنَ إِلَى مَكِيدَتِهِمْ فَيَوْلِبَ حَرَسَهُ عَلَيْهِمْ.

وَلَكِنَّ حِيلَتَهُمْ لِسُوءِ حَظِّهِمْ — لَمْ تَجْزُ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَدْرَكَ غَايَتَهُمْ مِنْذُ سَمِعَ بِمَقْدِمِهِمْ، فَاسْرَعَ بِاسْتِدْعَاءِ جَيْشِهِ لِلِقَائِهِمْ، وَرَدَّ عُدْوَانِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذُوهُ عَلَى غَرَّةٍ.

وَكَانَ أَبْنَاءُ «الضَّرِيرِ» فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ الْمُغِيرِ؛ وَكَانَ الْمَرْحُ وَالِاسْتِخْفَافُ وَالْفَوْضَى بَادِيَةً عَلَيْهِمْ.

وَكَانَ قَائِدُهُمْ «دُرَيْدَهَانَا» وَصَفِيَّهُ «كِرْنَا» غَيْرَ مُكْتَرِثِينَ بِأَعْدَائِهِمْ، كَأَنَّمَا حَسِبُوا الْحَرْبَ نَزْهَةً مَرِحَةً لَا جَجِيمًا مُسْعِرَةً. وَتَمَادَى بِهِمُ الْغُرُورُ، فَانْطَلَقُوا يَعْثُونَ وَيَمْرَحُونَ. وَيَنْدَفَعُونَ إِلَى الْقَصْرِ فِي غَيْرِ تَدَبُّرٍ وَلَا إِحْكَامٍ.

وَرَأَى «أَرْجُونَا» مَا يَسُودُ جَيْشَ أَبْنَاءِ عَمِّهِ مِنَ الْخَلَلِ وَالْفَوْضَى. فَأَيَّقَنَ أَنَّ الْهَزِيمَةَ لِاحِقَّةٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ، فَرَأَى أَنَّ وَاجِبَ الْحَزْمِ يَقْتَضِيهِ أَنْ يَتَرَيَّثَ (يَنْمَهَلُ) مُحْتَفِظًا بِجَيْشِهِ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ جَلِيَّةُ الْأَمْرِ، وَتَسْنَحَ لَهُ الْفُرْصَةُ لِقَهْرِ الْعُدُوِّ.

وظَلَّ يَرْقُبُ الْمَعْرَكَةَ فِي يَقِظَةٍ وَانْتِبَاهٍ. فَلَمَّ يَلْبَثُ أَنْ تَحَقَّقَتْ ظُنُونُهُ.

وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ جَيْشُ «دُرُويَادَا» عَلَى أْتَمِّ أَهْبَةٍ، وَأَكْمَلَ دُرْبَةٍ، فَلَمَّ يَنْبُتِ الْغُرَاةُ أَمَامَ هَجْمَتِهِ الْخَاطِفَةِ، وَضَرْبَاتِهِ الْمُسَدَّدَةِ، وَطَعْنَاتِهِ الْمَوْفِقَةِ.

وَسُرْعَانَ مَا دَبَّ الْفَرْعُ إِلَى قُلُوبِهِمْ، وَتَفَشَّى الْخَلَلُ صُفُوفَ أَبْنَاءِ «الضَّرِيرِ» فَلَاذُوا بِالْفِرَارِ، بَعْدَ أَنْ حَابَ مَسْعَاهُمْ، وَجَرِحَ قَائِدَاهُمْ.

(٣) الْقَائِدُ الْمُنتَصِرُ

وَهُنَا تَحَرَّكَ جَيْشُ «أَرْجُونَا» مُنْدَفِعًا إِلَى الْأَمَامِ فِي ثَبَاتٍ وَقُوَّةٍ وَنِظَامٍ، وَمَهَارَةٍ وَدُرْبَةٍ وَإِحْكَامٍ، يَقُودُهُمْ «أَرْجُونَا» إِلَى النَّصْرِ، وَإِلَى جَانِبِي جَوَادِهِ شَقِيْقَاهُ التَّوَأْمَانِ، يَتَقَدَّمُهُمْ أَخُوهُمْ الرَّابِعُ «بِهِمَا» لِيَفْسَحَ أَمَامَهُمُ الطَّرِيقَاتِ، فَاتِكًا بِكُلِّ مَنْ يَعْتَرِضُ سَبِيلَ الْغَزَاةِ الْفَاتِحِينَ، مُؤَجِّبًا الْحَمَاسَةَ فِي صُدُورِ الْجَيْشِ الْمُظْفَرِّ.



وَأُنْدَفَعَ الْجَيْشُ وَرَاءَ قَائِدِهِ الْعَظِيمِ، كَمَا يَنْدَفِعُ السَّيْلُ الْجَارِفُ لَا يَصُدُّهُ عَنْ سَبِيلِهِ شَيْءٌ.

يَا لَهَا مَعْرَكَةٌ هَائِلَةٌ لَوْ شَهِدْتَهَا — أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْعَزِيزُ — لَرَأَيْتَ مَا يُبْهَرُكَ مِنْ إِقْدَامِ «أَرْجُونَا» وَشَجَاعَتِهِ، وَقُوَّتِهِ وَبِرَاعَتِهِ، وَحُسْنِ رِمَايَتِهِ؛ وَاسْتَوْلَى عَلَيْكَ الْعَجَبُ وَالْإِعْجَابُ

مَعًا، وَهُوَ ثَابِتٌ كَالطُّوْدِ (الْجَبَلِ) يَصُولُ كَمَا يَصُولُ الْأَسَدُ، يَبْدُو — لِطَوْلِ قَامَتِهِ، وَارْتِفَاعِ هَامَتِهِ (رَأْسِهِ) — كَالنَّخْلَةِ الْعَالِيَةِ فِي وَهَجِ الظَّهِيرَةِ (شِدَّةِ الْحَرَارَةِ وَقَتِ الظُّهْرِ) يُمْطَرُ الْأَعْدَاءَ بِسِهَامِهِ، قَازِفًا مِنْ قَوْسِهِ فِي كُلِّ طَلْقَةٍ، حَمْسِينَ سَهْمًا مُسَدَّدَةً مُصْمِيَةً (مُمَيَّنَةً) تَنْطَلِقُ فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ، فَتُرْذِي الرَّمَايَا عَلَى الْفُورِ (تَقْتُلُ مَنْ تَرْمِيهِمْ لِلْحَالِ).
فَلَا عَجَبٌ إِذَا اسْتَوَى الرُّعْبُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، فَلَمْ يَطِيقُوا صَبْرًا عَلَى هَذَا الْبَلَاءِ، فَلَاذُوا بِالْفِرَارِ، وَتَفَرَّقُوا فِي غَيْرِ تَرِيثٍ وَلَا نِظَامٍ.

وَإِنْدَفَعَ مَلِكُ «الْبَنَغَالِ» إِلَى «أَرْجُونَا» شَاهِرًا سَيْفَهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَهْوِيَ عَلَيْهِ بِصَرْبَةٍ، فَابْتَدَرَهُ «أَرْجُونَا» فِي سُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ بِصِيحَةٍ أَذْهَلَتْهُ، وَانْقَضَ عَلَيْهِ انْقِضَاضُ الصَّاعِقَةِ، فَخَطَفَ سَيْفَهُ مِنْ يَدِهِ وَشَهَرَهُ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ:
«الآنَ أَصْبَحْتُ أَسِيرِي كَمَا تَرَى. وَلَوْ كَانَ أَمْرُكَ مَوْكُولًا إِلَيَّ لَأَمْنْتُكَ عَلَى حَيَاتِكَ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ، فَإِنَّ حَيَاتِكَ وَمَوْتَكَ رَهْنٌ بِمَشِيئَةِ «دُرُونَا»؛ يَعْفُو عَنكَ إِذَا شَاءَ، أَوْ يَبْعَثُ بِكَ إِلَى عَالِمِ الْفَنَاءِ.»

(٤) جَزَاءُ الْعُقُوقِ

وَمَا إِنْ سَمِعَ «دُرُويَادَا» بِاسْمِ النَّاسِكِ الْعَظِيمِ حَتَّى سِيءَ وَجْهُهُ وَامْتَقَعَ، وَزَادَ اضْطِرَابَهُ وَفَجَعَ، لَقَدْ رَأَى فِجَاءَةً صَدِيقَهُ الْقَدِيمَ الَّذِي تَنَكَّرَ لِصِدَاقَتِهِ، وَعَزَفَ عَنْ مَوَدَّتِهِ. يَا لَهَا مُفَاجَأَةً هَائِلَةً، أَدْخَلَتْ مِنَ الْبُهْجَةِ عَلَى قَلْبِ النَّاسِكِ، قَدَّرَ مَا أَدْخَلَتْ مِنَ النِّعَمِ عَلَى قَلْبِ عَدُوِّهِ الْغَايِرِ، فَأَذَلَّتْ كِبْرِيَاءَهُ وَغُرُورَهُ، وَبَدَّلَتْ صَلْفَهُ حَجَلًا، وَتَهَوَّرَهُ نَدْمًا، فَحَنَى رَأْسَهُ مُطْرِقًا بِجَبِينِهِ إِلَى الْأَرْضِ، لَا يَدْرِي كَيْفَ يَعْتَذِرُ عَمَّا أَسْلَفَهُ لِصَاحِبِهِ مِنْ إِسَاءَةٍ وَعُقُوقٍ، وَاسْتِهَانَةٍ بِمَا يَقْنِصِيهِ وَاجِبُ الصِّدَاقَةِ مِنْ حُقُوقٍ. وَتَحَيَّرَ الْمَلِكُ وَارْتَبَكَ، فَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَعْتَذِرُ عَنْ جُرْمِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يُسَوِّغُ غَدْرَهُ بِصِدِّيقِ طُفُولَتِهِ، بَعْدَ أَنْ عَاهَدَهُ مُنْذُ نَشَأَتِهِ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالْوَفَاءِ. وَإِنَّهُ لَفِي حَيْرَتِهِ وَارْتِبَاكِهِ، إِذْ ابْتَدَرَهُ «دُرُونَا» قَائِلًا: «لَا عَلَيْكَ يَا «دُرُويَادَا». هَدَى مِنْ رَوْعِكَ (قَلْبِكَ) — أَيُّهَا الصِّدِّيقُ الْقَدِيمُ — وَاعْلَمْ أَنَّي لَنْ أَفْكَرَ فِي قَطْعِ رَأْسِكَ وَإِحْمَادِ أَنْفَاسِكَ. وَقَلَّ لَكَ ذَلِكَ جَزَاءً أَيُّهَا الْمُنْكَبِّرُ الْجَاوِدُ النَّاكِتُ بِالْعَهْدِ. اطمئنْ بِالآ، فَإِنَّ الضَّغِينَةَ وَالانْتِقَامَ لَيْسَا مِنْ شَيْمِ الْكِرَامِ حَسْبِي أَنْ أُعَامَلَكَ بِمَا أَخَذْتَ

بِهِ نَفْسَكَ — مُنْذُ سَنَوَاتٍ ثَلَاثٍ — مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سَنَنْتَهَا وَاتَّبَعْتَهَا، وَشَرِيعَةً أَنْتَ شَرَعْتَهَا وَارْتَضَيْتَهَا. لَقَدْ رَأَيْتَ — وَرَأَيْكَ الْحَقُّ — أَنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَكَ مِنَ الْمُلُوكِ؛ لَا يَرْتَضِي صِدَاقَةَ فَقِيرٍ مِثْلِي صُغُولِكِ.

الرَّأْيُ مَا تَرَى. فَإِنَّ الصِّدَاقَةَ الْحَقَّ لَا تَكُونُ إِلَّا بَيْنَ الْأَكْفَاءِ وَالْأَنْدَادِ. فَكَيْفَ أَسْتَرِدُّ صِدَاقَتَكَ، وَأَسْتَعِيدُ مَوَدَّتَكَ؟ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ تُشَارِكَنِي فِي الْفَقْرِ وَالصَّعْلَكَةِ، أَوْ أُشَارِكَ فِي الْغِنَى وَأُقَاسِمَكَ الْمَمْلَكَةَ. أَمَّا الْأُولَى فَتَأْبَاهَا وَلَا تَرْضَاهَا. وَأَمَّا الثَّانِيَةُ، فَهِيَ أَهْوَنُ الشَّرِّينِ، وَأَخْفُ الصَّرْرَيْنِ. وَقَدْ قَرَّرْتُ نَزُولًا عَلَى إِرَادَتِكَ، وَرَغْبَةً فِي الْإِحْتِفَاطِ بِصِدَاقَتِكَ، أَنْ تَكُونَ مَلِكًا عَلَى نِصْفِ الْمَمْلَكَةِ، وَأَكُونَ مَلِكًا عَلَى نِصْفِهَا الْآخَرِ. لِنُصْبِحَ مُنْذُ الْيَوْمِ مَلِكَيْنِ مُتَكَافِئَيْنِ. وَمَنْ يَدْرِي فَلَعَلَّنَا نَعُودُ بَعْدَ قَلِيلٍ — كَمَا كُنَّا — صَدِيقَيْنِ مُتَالِفَيْنِ وَخَلِيلَيْنِ مُتَحَابِّينِ.» وَلَمْ يَجْرُؤْ الْمَلِكُ عَلَى دَفْعِ هَذِهِ السُّخْرِيَّةِ الْقَاتِلَةِ، فَاحْتَمَلَهَا عَلَى مَضِضٍ. وَلَمْ يَجِدْ بَدَأًا (مَقْرَأًا) مِنَ الْإِدْعَانِ لِحُكْمِهِ الْقَاهِرِ، وَالتَّظَاهِرِ بَقَبُولِهِ وَالرِّضَى بِهِ عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ، بِرَغْمِ مَا يَفِيضُ بِهِ قَلْبُهُ مِنْ ضَعْفِيَّةٍ وَحَسَدٍ. وَسُرْعَانَ مَا أَصْبَحَ «دُرُوبَادَا» مَلِكًا عَلَى النُّصْفِ الْجَنُوبِيِّ الَّذِي يَقَعُ جَنُوبَ نَهْرِ «الْكَنْجِ»، كَمَا أَصْبَحَ النَّاسِكُ مَلِكًا عَلَى النُّصْفِ الشَّمَالِيِّ.

(5) نَشِيدُ النَّصْرِ

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ، وَدَعَ النَّاسِكُ تَلَامِيذَهُ الْبَرَّةَ الْأَوْفِيَاءَ شَاكِرًا لَهُمْ مَا أَسَدُوهُ إِلَيْهِ مِنْ صَنِيعٍ. وَعَادَ الْأُمْرَاءُ وَقُلُوبُهُمْ تَفِيضُ أَسَى وَحُزْنًا لِفِرَاقِ أُسْتَاذِهِمُ الْعَظِيمِ، ذَاكِرِينَ مَا نَعَمُوا بِهِ فِي صُحْبَتِهِ مِنْ أَيَّامٍ مَرَّتْ. كَمَا تَمَرُّ الْأَحْلَامُ، وَقَدْ أَيْقَنُوا أَنَّ زَمَانَ الدَّرَاسَةِ السَّعِيدِ قَدْ انْقَضَى، وَخَلَفَ وَرَاءَهُ حَيَاةٌ مَمْلُوءَةٌ بِالتَّبَعَاتِ الْجِسَامِ. وَعَقَدَ الْجَيْشُ الظَّافِرُ لِرِوَاءِ النَّصْرِ لِقَائِدَهُ «أَرْجُونَا» الْعَظِيمِ؛ مُرَدِّدًا — فِي أَثْنَاءِ عَوْدَتِهِ — النَّشِيدَ التَّالِيَّ:

يَا قَاهِرَ الْأَبْطَالِ	وَفَاتِحَ «الْبَنْغَالِ»
لَكَ الْمَزَايَا الْبَاهِرَةَ	وَالْعَزَمَاتُ الْقَاهِرَةَ
وَصَوْلَةَ الْأَسُودِ	وَشَرَفَ الْجُدُودِ

صِرَاعُ الْأَخْوَيْنِ

* * *

القَائِدُ الْبَسَامُ أَمِيرُنَا الْمَقْدَامُ
سَهَامُهُ مُشْتَبِكُهُ تُضِيءُ وَسْطَ الْمَعْرَكَةِ
وَهُوَ مَدِيدُ الْقَامَةِ مُشْرِقُ الْإِبْتِسَامَةِ
كَالِنَخْلَةِ الْكَبِيرَةِ فِي وَهَجِ الظَّهِيرَةِ
فِيهَا جَنِيُّ الرُّطْبِ مِثْلُ عُقُودِ الذَّهَبِ
تَعْلُو عَلَى الْأَشْجَارِ فِي غَيْرِ مَا اسْتِكْبَارِ

* * *

يَا قَاهِرَ الْأَبْطَالِ وَفَاتِحَ «الْبَنْغَالِ»
لَكَ الْمَزَايَا الْبَاهِرَةَ وَالْعَزَمَاتُ الْقَاهِرَةَ
وَصَوْلَةَ الْأَسْوَدِ وَشَرْفَ الْجُدُودِ

* * *

القَائِدُ الشُّجَاعُ أَمِيرُنَا الْمُطَاعُ
أَمِيرُنَا «أَرْجُونَا» حَقَّقَ مَا تَرَجُونَا
بِمِثْلِهِ عَزَّ الْوَطَنُ عَلَى الْعَوَادِي وَالْمَحَنُ

* * *

خَمْسُونَ سَهْمًا تَزِمِي أَعْدَاءَهُ فَتَضْمِي
يُطْلِقُهَا كَالرَّوْبَعَةِ مِنْ قَوْسِهِ مُجَمَّعَةٍ
تُبَاغِتُ الرَّمَايَا بِعَاجِلِ الْمَنَايَا

* * *

يَا قَاهِرَ الْأَبْطَالِ وَفَاتِحَ «الْبَنْغَالِ»
لَكَ الْمَزَايَا الْبَاهِرَةَ وَالْعَزَمَاتُ الْقَاهِرَةَ
وَصَوْلَةَ الْأَسْوَدِ وَشَرْفَ الْجُدُودِ

(٦) الْغَاضِبَانِ

وَكَانَ «دُرَيْدُهُانَا» وَ«كَرْنَا» يَسِيرَانِ فِي مُؤَخَّرَةِ الْجَيْشِ الظَّافِرِ وَيَسْتَمْعَانِ إِلَى نَشِيدِ النَّصْرِ وَقَلْبَاهُمَا يَفِيضَانِ غَيْظًا وَأَلَمًا، لِمَا تَفَرَّدَ بِهِ مُنَافِسُهُمَا مِنْ نَجَاحٍ وَتَوْفِيقٍ. وَهَمَسَ «دُرَيْدُهُانَا» فِي أَدْنِ صَاحِبِهِ «كَرْنَا» يُوَصِيهِ بِالِانْتِقَامِ، فَأَجَابَهُ «كَرْنَا»: «لِكُلِّ شَيْءٍ أُوَانٌ». ثُمَّ لَمْ يَزِيدَا عَلَى مَا قَالَاهُ شَيْئًا. وَمَا زَالَا صَامِتَيْنِ حَتَّى وَصَلَ الْجَيْشُ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ «بِهَشْمَا»، فَرَأَى الْمُنْهَزِمَانَ مِنْ حَفَاوَةِ الشَّعْبِ بِقَائِدِهِ الْمُنتَصِرِ، مَا ضَاعَفَ مِنْ أَلَمِهِمَا، وَأَجَّجَ مِنْ أَضْغَانِهِمَا (أَحْقَادِهِمَا). وَكَانَتْ بِشَائِرُ النَّصْرِ قَدْ سَبَقَتْ وَصُولَ الْجَيْشِ إِلَى «هَسْنَائُورَا» فَشَاعَتِ الْبُهْجَةُ فِي قُلُوبِ الْأَهْلِينَ وَتَمَلَّكَهُمُ الْفَرَحُ، فَاِنْدَفَعُوا يَتَسَابِقُونَ إِلَى تَزْيِينِ طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ وَدَكَكِيْنِهَا وَبِيُوتِهَا بِالْأَعْلَامِ وَالْأَزْهَارِ وَالرِّيَاحِينَ، احْتِفَاءً بِمَقْدِمِ «أَرْجُونَا» وَأَشْقَائِهِ الْأَرْبَعَةِ الْمُنتَصِرِينَ.

(٧) مُوَامَرَةٌ حَسِيْسَةٌ

وَعَاشَتِ الْبِلَادُ مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ هَادِئَةً نَاعِمَةً الْبَالِ، مُؤَفَّرَةً الْأَمْنِ وَالرِّخَاءِ. وَرَأَى الْمَلِكُ «بِهَشْمَا» أَنَّ يُكَافِئَ أَبْنَاءَ «الشَّهِيدِ» عَلَى مَا أَحْرَزُوهُ مِنْ نَصْرِ بَاهِرٍ، فَرَشَّحَ لَوْلَايَةِ الْعَهْدِ كَبِيرَهُمْ «يُدِشْت-هيرا»، وَاخْتَصَّ إِخْوَتَهُ بِمَا هُمْ أَهْلٌ لَهُ مِنْ الْأَوْسَمَةِ وَالنِّيَاشِينَ، فَاتَّارَ بِذَلِكَ — عَلَى غَيْرِ عَمْدٍ — حَقْدَ ابْنِ عَمِّهِمُ الْأَكْبَرِ، وَالْهَبَّ مِنْ غَيْظِهِ مَا حَمَدَ، فَوَسَّوَسَ لَهُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَغْتَالَ أَبْنَاءَ «الشَّهِيدِ» بِأَيِّ وَسِيلَةٍ. وَتَمَلَّكُهُ حُبُّ الْإِنْتِقَامِ، فَلَمْ يُطِقْ صَبْرًا عَلَى كِتْمَانِ سِرِّهِ، فَأَفْضَى إِلَى أَبِيهِ «الضَّرِيرِ» بِمَا يُضْمِرُهُ لِأَبْنَاءِ عَمِّهِ مِنْ غَيْظٍ وَكِرَاهِيَةٍ. وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: «لَقَدْ اخْتَصَّ جَدُّنَا أَبْنَاءَ عَمَّنَا بِأَوْسَمَةِ الْمَجْدِ وَالْقَابِ الشَّرَفِ، وَجَعَلَ عَمِيدَهُمْ وَلِيَّ عَهْدِهِ. وَأَسْنَدَ إِلَى إِخْوَتِهِ أَعْلَى مَنَاصِبِ الدَّوْلَةِ، وَمَا زَالَ يُضَاعِفُ إِعْزَاؤَهُ وَتَكْرِيمَهُ لِأَبْنَاءِ «الشَّهِيدِ»، حَتَّى أَصْبَحُوا السَّادَةَ وَنَحْنُ الْعَبِيدُ».

وَمَا زَالَ «دُرَيْدُهُانَا» يُرِدُّ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْحَاقِدَةَ وَأَمْتَالَهَا، حَتَّى أَحْفَظَ أَبَاهُ، وَأَوْعَرَ صَدْرَهُ، وَالْهَبَّ أَحْقَادَهُ عَلَيْهِمْ، فَاِنزَلَقَ «الضَّرِيرُ» مَعَ وَلَدِهِ فِي طَرِيقِ الْإِنْتِقَامِ وَالْكَيْدِ، وَأَطَالَ «الضَّرِيرُ» تَفْكِيرَهُ حَتَّى اهْتَدَى إِلَى خُطَّةٍ مَآكِرَةٍ كَفَيْلَةٍ بِالْقَضَاءِ عَلَى أَبْنَاءِ عَمِّهِمْ إِلَى الْأَبْدِ. ثُمَّ أَفْضَى بِخُطَّتِهِ إِلَى وَلَدِهِ بَعْدَ أَنْ أَوْصَاهُ بِكِتْمَانِهَا وَالِاحْتِفَاطِ بِهَا، حَتَّى لَا



يَذِيعُ سِرُّ الْمُؤَامِرَةِ فَتَحْبِطَ (تُخْفِقُ) وَلَا يُكْتَبُ لَهَا النَّجَاحُ. كَمَا أَوْصَاهُ أَنْ يَعْتَصِمَ بِالصَّبْرِ
فِيحَزِمَ أَمْرَهُ وَيَكْظِمَ غَيْظَهُ، فَلَا يَتَعَجَّلَ بِإِظْهَارِ عَدَائِهِ، وَإِعْلَانِ سُخْطِهِ، وَنَصَحَهُ أَنْ
يُخْفِيَ سِرَّهُ عَنِ كُلِّ إِنْسَانٍ حَتَّىٰ عَنِ صَفِيهِ الْمُخْلِصِ «كَرْنَا» لِمَا يَعْرِفَانَهُ عَنْهُ مِنْ إِثَارِ
الصَّرَاحَةِ وَالْخَيْرِ، وَبُغْضِ الْوَقِيعَةِ وَالْحَدِيدَةِ، وَتَرْفُوعِهِ عَنِ أَسَالِيبِ الْخِيَانَةِ وَالْعَدْرِ.

(٨) مَهْرَجَانُ «بِنَارِس»

وَسُرْعَانَ مَا ذَاعَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ مَدِينَةَ «بِنَارِس» الْمُقَدَّسَةَ سَتَشْهَدُ مَهْرَجَانًا حَافِلًا بِكُلِّ مَبَاهِجِ الْحَيَاةِ، وَكَانَ مُدَبِّرُو الْمُؤَامَرَةِ يَتَفَنَّنُونَ فِي التَّشْوِيقِ إِلَى هَذَا الْمَهْرَجَانِ، فَلَمْ يُطَقْ «أَرْجُونًا» صَبْرًا عَلَى التَّخَلُّفِ عَنِ مُشَاهَدَةِ الْإِحْتِفَالِ الْعَظِيمِ، وَبِذَلِكَ أَتَاحَ لِابْنِ عَمِّهِ فُرْصَةً الْإِنْتِقَامِ، وَهَيَّأَ لَهُ الْوَسِيلَةَ الَّتِي أَعَدَّهَا لِإِنجَازِ مُؤَامَرَتِهِ. فَأَسْرَعَ «دُرَيْدَهَانًا» إِلَى جَدِّهِ يُبْلِغُهُ رَغْبَةَ «أَرْجُونًا» فِي مِشَارَكَتِهِمْ فِي رِحْلَتِهِمْ إِلَى «بِنَارِس» لِيَشْهَدَ مَعَهُمْ مَهْرَجَانَهَا الْكَبِيرَ. فَظَاهَرَ الْجَدُّ ارْتِيَاخَهُ لِهَذَا الْاِقْتِرَاحِ، وَدَعَا لِحَفَدَتِهِ بِالتَّوْفِيقِ فِي حَلِّهِمْ وَتَرْحَالِهِمْ.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ، تَأَهَّبَ أَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ» لِلسَّفَرِ إِلَى «بِنَارِس» مَعَ أَبْنَاءِ «الضَّرِيرِ» دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا مَا دَبَّرَهُ لَهُمْ عَمُّهُمْ وَابْنُهُ مِنْ غَدَرٍ، وَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ مَكْرٍ. فَأَخَذَ أَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ» اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ حَاشِيَةِ الْقَصْرِ، فَأَعَدُّوا لِرِحْلَتِهِمْ كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مُعَدَّاتٍ، وَسَارُوا فِي حَشْدٍ مِنْ أَنْصَارِهِمْ يَحْمِلُونَ حَقَائِبَهُمْ الْمَمْلُوءَةَ بِالنَّفَائِسِ وَالْحُلِيِّ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَحْبَارِ الْكَرِيمَةِ، وَأَعَدُّوا خَمْسَ حُلَلٍ مُلَوَّكِيَّةٍ فَاخِرَةً لِيُظْهِرُوا بِالْمُظْهِرِ الْمَلِكِيِّ اللَّائِقِ بِهِمْ. وَقَدْ أَرْسَلُوا رَئِيسَ الْقَصْرِ «پَارُوشَانًا» مِنْ قَبْلِهِمْ، لِيَخْتَارَ لَهُمْ قَصْرًا فَخْمًا فِي «بِنَارِس» يُقِيمُونَ فِيهِ خِلَالَ مُدَّةِ الْإِحْتِفَالِ. وَكَانَ هَذَا الْوَزِيرُ لِسُوءِ الْحِظِّ حَبِيبُ النَّيَّةِ، مُؤَفَّرَ الدَّمَاءِ فَاسِدِ الطَّوِيَّةِ، فَلَمَّا اتَّصَلَ بِهِ «دُرَيْدَهَانًا» اسْتَطَاعَ أَنْ يَكْسِبَهُ إِلَى جَانِبِهِ بِمَا عَمَّرَهُ بِهِ مِنْ مَالٍ، وَمَا مَنَّاهُ بِهِ مِنْ آمَالٍ.

فَاتَّفَقَ الْغَادِرَانِ عَلَى أَنْ يَقُومَ الْوَزِيرُ بِنِيبَانِ قَصْرِ لِلْأَمْرَاءِ مِنْ حَشْبِ الصَّمْغِ، وَهُوَ مِنْ أَسْرَعِ الْمَوَادِّ قَابِلِيَّةً لِللَّتْهَابِ، يَتَحَوَّلُ — مَتَى اشْتَعَلَ — جَبَلًا مِنَ النَّارِ، وَهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَبْنُوسِ فِي قَابِلِيَّةِ الْاِحْتِرَاقِ وَسُرْعَةِ الْاِشْتِعَالِ، مَا إِنْ تَمَسَّهُ النَّارُ حَتَّى يَلْتَهَبَ التَّهَابًا، وَيَتَحَوَّلُ فِي الْحَالِ بُرْكَانًا ثَائِرًا فِي لَحْظَاتٍ، وَقَدْ أَوْصَاهُ «دُرَيْدَهَانًا» أَنْ يَمْلَأَ الْقَصْرَ بِأَثْمَنِ الْأَثَاثِ، غَيْرِ مُكْتَرِثٍ بِمَا يُنْفِقُ فِي تَأْتِيئِهِ مِنْ مَالٍ طَائِلٍ، لِأَنَّ أَبَاهُ سَيَمْنَحُهُ أَضْعَافَ مَا أَنْفَقَ، وَيَعْمُرُهُ بِتَرَوَّةٍ لَا يَحْلُمُ بِهَا.

فَتَغَلَّبَ الْجَسْعُ عَلَى ضَمِيرِ «پَارُوشَانًا» فَلَمْ يُذِعِ السَّرَّ الَّذِي اسْتَوَدَعَهُ، أَوْ يَنْبِسَ بِكَلِمَةٍ عَنِ مُؤَامَرَتِهِ الدَّيْنِيَّةِ، وَذَهَبَ مِنْ فُورِهِ إِلَى «بِنَارِس» حَيْثُ نَفَذَ كُلَّ مَا أَرَادَهُ الْأَمِيرُ. وَكَانَتْ خِطَّةُ «دُرَيْدَهَانًا» — الَّتِي ابْتَكَّرَهَا الضَّرِيرُ، وَعَاوَنَهُ فِيهَا الْوَزِيرُ الْأَثْمُ «پَارُوشَانًا»



— بَعِيدَةَ الْغُورِ مُحْكَمَةَ التَّدْبِيرِ لَا سَبِيلَ إِلَى إِخْفَاقِهَا. وَلَوْلَا عِنَايَةُ اللَّهِ الَّتِي أَلْهَمَتْ
 «فِيدُورًا» خَالَ أَبْنَاءِ «الشَّهِيدِ» لَقَضِيَ عَلَيْهِمُ بِالْفَنَاءِ.
 وَكَانَ «فِيدُورًا» رَجُلًا زَيْنًا عَاقِلًا، يَجْمَعُ إِلَى صِدْقِ الْفِرَاسَةِ، رَجَاحَةَ الْعَقْلِ وَطَهَارَةَ
 الْقَلْبِ، وَكَانَ الشُّكُّ يُسَاوِرُهُ فِي «دُرَيْدِهَانَا» وَيَتَوَجَّسُّ مِنْهُ شَرًّا، وَلَا يَأْمَنُ جَانِبَهُ، فَظَلَّ
 يَرْقُبُ حَرَكَاتِهِ دُونَ أَنْ يُشْعِرَهُ بِمُرَاقَبَتِهِ، حَتَّى اهْتَدَى إِلَى سِرِّهِ الْخَفِيِّ، وَعَرَفَ دَقَائِقَ مَا
 أَبْرَمَ مِنْ خُطَّةٍ مَآكِرَةٍ، فَلَمَّا حَانَ مَوْعِدُ السَّفَرِ اخْتَلَى بِأَوْلَادِ أُخْتِهِ، وَكَاشَفَهُمْ بِمَا يَسْتَقْبِلُهُمْ
 مِنْ خَطَرٍ دَاهِمٍ بَيَّنَّهُ لَهُمْ ابْنُ عَمِّهِمْ «دُرَيْدِهَانَا» لِلْقَضَاءِ عَلَى حَيَاتِهِمْ، وَلَكِنَّ خَالَهُمْ
 لَمْ يَتَرَدَّدْ بَرَعْمَ ذَلِكَ فِي نُصْحِهِمْ بِالسَّفَرِ، حَتَّى لَا يُحَرِّمُوا مُشَاهَدَةَ مَهْرَجَانِ «بِنَارِسَ»

الْعَظِيمِ، مُتَّظَاهِرِينَ بِجَهْلِ مَا دَبَّرَهُ لَهُمْ ابْنُ عَمِّهِمُ الْغَادِرُ، وَوَعَدَهُمْ بِأَنْ يَخْبِرَهُمْ بِمَا تَنَفَّقَ عَنْهُ حِيلَتُهُ فِي الْوُصُولِ إِلَى نَجَاتِهِمْ عِنْدَ اقْتِرَابِ الْقَضَاءِ الَّذِي يَتَهَدَّدُهُمْ. فَوَعَدُوهُ بِكَيْتْمَانٍ مَا سَمِعُوهُ مِنْهُ.



وَحَرَجَتِ الْمَدِينَةَ بِأَسْرِهَا لِتُشِيعَ الْإِخْوَةَ الْخَمْسَةَ الظَّافِرِينَ إِلَى رِحْلَتِهِمُ الْمُبَارَكَةِ. فَكَانَتِ الْأَزْهَارُ تَتَنَاثَرُ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَالْوُرُودُ وَالرِّيَّاحِينَ تَلْقَى لِتَحِيَّتِهِمْ، تُجَاوِبُهَا أَصْوَاتُ الْفَرَحِ وَالابْتِهَاجِ، وَصِيحَاتُ الْإِعْجَابِ وَالتَّقْدِيرِ لَهُمْ. وَقَدْ كَانَ «دُرَيْدُهَانَا» جَذْلَانَ (فَرِحَانَ) عَلَى خِلَافٍ مَا عُرِفَ عَنْهُ مِنْ تَجَهُمٍ وَعُبُوسٍ، فَرَاخَ يُقِيمُ حَقَلَاتٍ رَاقِصَةً،

ابْتِهَاجًا بِمَا وَفَّقَ إِلَيْهِ، مُعْتَقِدًا أَنَّ حُطَّتَهُ فِي طَرِيقِهَا إِلَى النَّجَاحِ، وَكَانَ يَضْحَكُ وَيَصِيحُ مُغْنِيًا صَاحِبًا وَهُوَ رَاكِبٌ بِجَوَارِهِمْ. وَقَدْ صَحِبَ الْمَوْكِبَ جَدُّهُمْ «بِهَشْمَا» الْعَجُوزُ إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ ثَقُلَهُ مَرْكَبَتُهُ الذَّهَبِيَّةُ يَجْرُهَا ثُورَانِ أَسُودَانِ. وَلَمَّا حَانَ وَقْتُ الْوَدَاعِ غَلَبَهُ الْحَنَانُ الْأَبَوِيُّ، فَبَكَى وَهُوَ يَقْبَلُهُمْ مُتَمَنِّيًا لَهُمْ الْهَنَاءَةَ وَالسَّعَادَةَ وَالْغَيْبَةَ، دَاعِيًا اللَّهَ أَنْ يَعُودُوا بِخَيْرٍ جَمِيعًا بَعْدَ انْقِضَاءِ الْإِثْنَى عَشَرَ شَهْرًا وَهِيَ مَدَّةُ الْاِحْتِفَالِ، وَقَدْ صَحِبَ الْأَمْرَاءَ خَالَهُمْ «فِيدُورَا» مَسَافَةً طَوِيلَةً خَارِجَ الْمَدِينَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يَعُودَ، هَمَسَ فِي أُذُنِ «يُدِشْت-هَيِرَا» عَمِيدِ أُسْرَةِ «الشَّهِيدِ»، بِصَوْتِ خَافِتٍ، وَبَلُغَةٍ يَفْهَمُهَا كِلَاهُمَا وَحَدُّهُمَا: «عَلَيْكُمْ بِالْحِرْصِ وَمُضَاعَفَةِ الْاِتِّبَاهِ وَالْيَقِظَةِ لَيْلِ نَهَارٍ، وَأَوْصُوا حُرَّاسَكُمْ أَلَّا تَغْفَلَ أَعْيُنُهُمْ وَلَا تَنَامَ، وَلَا تَنْسُوا أَنْ أَعْدَاءَكُمْ يَنْتَهِرُونَ غَفْلَةَ يَتَحَيَّنُونَهَا مِنْكُمْ لِلْقَضَاءِ عَلَيْكُمْ. وَتَبَيَّنُوا طَرِيقَ الْغَايَةِ الَّذِي تَسْلُكُونَهُ إِلَى قَصْرِهِمْ فِي مَدِينَةِ «بِنَارِسَ» حَتَّى لَا تَضِلُّوا طَرِيقَكُمْ فِي أَثْنَاءِ الْعُودَةِ. وَمَتَى جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبِيلِي يَحْمِلُ خَاتَمِي فَاسْتَقْبِلُوهُ اسْتِقْبَالًا حَسَنًا، فَسَارِسِلْ لَكُمْ مَعَهُ آتَاتٍ خَاصَّةً، تَسْتَطِيعُونَ بِهَا حَفْرَ مَمَرٍ تَسْلُكُونَهُ لِلخُرُوجِ مِنَ الْقَصْرِ، إِذَا اشْتَعَلَتِ النَّارُ فِي بَيْتِكُمْ، دُونَ أَنْ يَفْطِنَ إِلَيْكُمْ أَحَدٌ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ سَنَجِدُونَ فِي اسْتِقْبَالِكُمْ مَتَى حَرَجْتُمْ، سَفِينَةً تِجَارِيَّةً ذَاتَ سَارِيَّةٍ حَمْرَاءَ فِي ائْتِنَارِكُمْ، وَسَتَجِدُونَهَا وَاقْفَةً عَلَى حَافَةِ نَهْرِ «الْكَنْجِ». ثُمَّ عَانَقَ أَبْنَاءَ أُخْتِهِ مُودِّعًا، دَاعِيًا لَهُمْ بِالسَّلَامَةِ وَالتَّوْفِيقِ. ثُمَّ أَدَارَ «فِيدُورَا» الْكَرِيمُ رَأْسَ جَوَادِهِ عَائِدًا.

(٩) فِي مَدِينَةِ «بِنَارِسَ»

وَلَمَّا وَصَلَ الْأَمْرَاءُ إِلَى «بِنَارِسَ» اسْتَقْبَلَهُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ اسْتِقْبَالًا حَافِلًا، فَقَدْ كَانَتْ شَهْرَتُهُمْ ذَائِعَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَقَدْ كَانَ «پَارُوشَانَا» فِي شَرَفِ اسْتِقْبَالِهِمْ وَوَجْهَهُ يعلُوهُ الْبَشْرُ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ إِلَى قَصْرِ فَاجِرٍ يَلِيقُ بِالْأَمْرَاءِ الْعِظَامِ، فَاضْطَرَّ إِلَى بِنَاءِ قَصْرِ كَبِيرٍ يَحُلُونَ بِهِ عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ، وَقَدْ أَتَتْهُ لَهُمْ بِأَثْمَنِ الرِّيَاشِ، وَجَمَعَ فِيهِ كَثِيرًا مِنَ الْجَوَارِي وَالْحَدَمِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ جَالِبَاتِ السُّرُورِ وَبَاعِثَاتِ الْبُهْجَةِ. فَشَكَرَ لَهُ الْأَمْرَاءُ هِمَّتَهُ وَبِرَاعَتَهُ فِي تَشْيِيدِ الْقَصْرِ الْفَرِيدِ الَّذِي حَدَّثَهُمْ عَنْهُ وَشَوَّقَهُمْ إِلَيْهِ. وَلَمَّا بَلَغُوا الْقَصْرَ تَبَيَّنُوا رَائِحَةَ الْقَطِرَانِ وَالزَّيْتِ وَمَا إِلَيْهِمَا مِنَ الْمَوَادِّ السَّرِيعَةِ الْاِلْتِهَابِ،



بِرَعْمٍ مَا كَانَ يَفُوحُ مِنْ جَنَابَتِهِ مِنَ الْعُطُورِ الزَّكِيَّةِ الْمُبْتَوِّثَةِ فِي أَرْجَائِهِ. وَفِي الْيَّامِ التَّالِيَةِ زَارَ الْأُمَرَاءُ مَعَابِدَ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَشَاهَدُوا مَا أُقِيمَ فِيهَا مِنَ الْإِحْتِفَالَاتِ الدِّيْنِيَّةِ. وَمَا زَالُوا يَدْرُسُونَ أَنَارَهَا وَمَعَاهِدَهَا مُتَنَقِّلِينَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ حَتَّى انْقَضَى عَلَيْهِمْ أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا لَمْ يَغْفُلُوا فِي أَثْنَائِهَا عَنْ حِرَاسَةِ مَسْكِنِهِمْ فِي أَثْنَاءِ وُجُودِهِمْ بِهِ، حَتَّى يَأْمَنُوا خَطَرَ الْحَرِيقِ. وَبَدَلُوا قُصَارَى جَهْدِهِمْ فَلَمْ يَتَّيَحُوا الْفُرْصَةَ لِأَحَدٍ مِنْ أَنْصَارِ «دُرَيْدَهَانَا» لِيُنْفِذَ خُطَّتَهُ.

فَلَمَّا جَاءَ الشَّهْرُ الثَّانِي عَشَرَ حَضَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ خَالِهِمْ «فِيدُورًا» مُسْتَأْذِنًا حُرَّاسَ الْقَصْرِ فِي مُقَابَلَةِ «يُدِشْت-هَمِيرًا»، فَلَمَّا رَأَهُ أَهْدَى إِلَيْهِ خَاتَمَ خَالِهِ «فِيدُورًا»؛ فَعَلِمَ أَنَّهُ مِنْ قِبَلِهِ، وَسَأَلَهُ عَنْ أَدْوَاتِ الْحَفْرِ، فَقَدَّمَهَا لَهُ، وَبِذَلِكَ اسْتَطَاعَ الْأَمْرَاءُ أَنْ يُنْشِئُوا مَمَرًا طَوِيلًا تَحْتَ سَطْحِ الْأَرْضِ يَصِلُ قَصْرَهُمْ بِالْغَابَةِ، لِيُتِيحَ لَهُمُ النِّجَاةَ مَتَى احْتَرَقَ الْقَصْرُ، فَلَمَّا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ، كَانَ الْقَلْقُ قَدِ اشْتَدَّ بِ «أَرْجُونًا»، فَقَالَ لِإِخْوَتِهِ:

«شَدَّ مَا أَضْجَرْتَنِي هَذِهِ الْحَيَاةُ الْمُتَشَابِهَةُ فِي «بِنَارِس» يَا إِخْوَتِي، وَيَلُوحُ لِي أَنَّ حِيلَتَنَا قَدْ أَعْجَزَتْ أَعْدَاءَنَا، وَأَفْسَدَتْ خُطَّتَهُمُ الَّتِي ابْتَكَّرُوهَا لِإِهْلَاكِنَا وَالتَّنْكِيلِ بِنَا، فَلَمْ يَخْطُرْ عَلَيَّ بِالْهَمِّ أَنْ يَحْرِقُوا الْقَصْرَ وَنَحْنُ خَارِجُهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَفُوتُ عَلَيْهِمُ الْغَرَضُ، وَيُنْجِي مِنْ شَبَكَتِهِمْ صَيْدُهُمْ. وَقَدْ رَأَوْا كَيْفَ تَضَاعَفُ حِرَاسَةُ الْقَصْرِ مَتَى حَلَلْنَا فِيهِ، وَلَمْ يَجِدُوا إِلَى إِحْرَاقِهِ سَبِيلًا. فَإِذَا سِتْنَمُ أَنْ تَلْقُوا عَنْهُمْ عِنَاءَ الْإِنْتِظَارِ عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ، وَتَرِيحُوهُمْ مِنَ التَّفْكِيرِ فِي غَيْرِ جَدْوَى، كَمَا تَرِيحُونَنَا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ التَّاعِسَةِ الْمُتَكَرِّرَةِ الرَّاتِبَةِ، فَهَنَّاكَ وَسَيْلَةَ مَأْمُونَةَ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْغَرَضِ، هِيَ أَنْ نَعْجَلَ بِإِحْرَاقِ الْقَصْرِ بِأَيْدِينَا لَا بِأَيْدِي أَعْدَائِنَا، نُحْرِقُهُ بَعْدَ أَنْ نَخْرُجَ مِنَ الْمَمَرِ آمِنِينَ، فَيَحْسِبُ أَعْدَاؤُنَا أَنَّ الْقَصْرَ احْتَرَقَ مُصَادَفَةً، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ يَدٌ، وَأَنَّا ذَهَبْنَا طُعْمَةً لِلنَّارِ، فَيَأْمَنُونَ جَانِبَنَا وَتَتَمُّ لَنَا خَدِيعَتُهُمْ مِنْ حَيْثُ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ خَدَعُونَا. وَكَانَ الْأَمْرَاءُ قَدْ ضَجِرُوا بِهِذِهِ الْحَيَاةِ الْقَلِقَةِ، كَمَا ضَجِرَ «أَرْجُونًا» وَاشْتَدَّ حَيْنُهُمْ إِلَى وَطَنِهِمْ، وَشَوْقُهُمْ لِرُؤْيَا جَدِّهِمْ «بِهَشْمَا» وَخَالِهِمْ «فِيدُورًا»، فَاقْفَرُوا أَخَاهُمْ «أَرْجُونًا» عَلَى رَأْيِهِ، وَرَحَبُوا بِاقْتِرَاجِهِ.

فَلَمَّا أَقْبَلَ الْمَسَاءُ أُرْسِلُوا إِلَى أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ كُلِّ مَنْ فِي الْقَصْرِ، ثُمَّ اشْعَلُوا النَّارَ فِي مَقْدَمَتِهِ، وَأَنْطَلَقُوا فِي عَدْوِهِمْ مُسْرِعِينَ إِلَى الْمَمَرِ الْعَجِيبِ. وَالتَّهَبَ الْقَصْرُ فِي لَحْظَاتٍ، وَارْتَفَعَ اللَّهَبُ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، وَخَفَّ سَكَاُنُ الْمَدِينَةِ — مِنْ كُلِّ مَكَانٍ — لِرُؤْيَا الْجَحِيمِ الْمُسْتَعْرَةِ، الَّتِي لَمْ يَشْهَدُوا لَهَا فِي حَيَاتِهِمْ مَثِيلًا. وَإِنَّهَا لَتَعْدِلُ فِي اضْطِرَامِهَا مِائَةَ ضِعْفٍ مِنْ وَهْجِ الشَّمْسِ فِي سَاعَةِ الظُّهَيْرَةِ. وَقَدْ بَلَغَ مِنْ شِدَّتِهَا وَاسْتِعَارِهَا أَنْ أَحْرَقَتْ أَشْعَثَهَا الرَّمْلَ وَالصَّخْرَ، كَمَا أَحْرَقَتْ أَسْرَابَ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ.

وَأَسْرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ إِلَى الْقَصْرِ الْمُحْتَرِقِ وَاجِفَةً قُلُوبُهُمْ، زَائِعَةً أَبْصَارُهُمْ، مَعْقُودَةً — مِنَ الدُّعْرِ — أَلْسِنَتُهُمْ، تَتَعَالَى صِيحَاتُهُمْ وَصَرَخَاتُهُمْ، وَتَتَصَاعَدُ أَنَانُهُمْ وَحَسْرَاتُهُمْ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ أَبْنَاءَ «الشَّهِيدِ» قَدْ رَاحُوا طُعْمَةً سَائِعَةً لِلنَّارِ. عَلَى حِينِ وَاصِلِ الْأَمْرَاءِ



سَيْرُهُمْ، فَاجْتَازُوا النَّفْقَ وَمَشَوْا - فِي الْغَايَةِ - أُمِّيَالًا، مُسْتَرْشِدِينَ بِمَا مَرَّ بِهِمْ مِنْ
 أَمْرِ (أَمَارَاتٍ) وَصَوَى (عَلَامَاتٍ تَكُونُ فِي الطَّرِيقِ). فَقَدَ أَوْصَاهُمْ خَالَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا
 مِنْ كُلِّ مَا يَرُونَهُ - فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى «بَنَارِسَ» - مِنْ أَمْرِ وَصَوَى، حَتَّى لَا يَضِلُّوا
 سَبِيلَهُمْ فِي عَوْدَتِهِمْ. فَلَمْ يُقَصِّرُوا فِي اتِّبَاعِ نَصِيحَةِ خَالِهِمْ، وَرَاحُوا يَتَّقِصُّونَهَا أَمْرَةً بَعْدَ
 أَمْرَةٍ، وَيَجْتَازُونَهَا صَوَّةً بَعْدَ صَوَّةٍ، حَتَّى بَلَغُوا ضِفَّةَ النَّهْرِ، بَعْدَ أَنْ اجْتَازُوا أَمْرَ الْغَايَةِ

وَصُوَاهَا. وَهُنَا عَرَضَتْ لَهُمْ مُشْكِلَةٌ جَدِيدَةٌ، فَلَمْ يَدْرُوا كَيْفَ يَعْبرُونَ النَّهْرَ، دُونَ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ، وَيَهْتَدِيَ إِلَى مَطْوِيِّ سِرِّهِمْ. فَقَدْ كَانُوا — كَمَا تَعْلَمُ — مِنَ النَّبَاهَةِ (الشُّهْرَةِ) بِحَيْثُ لَا يَجْهَلُهُمْ مَنْ يَرَاهُمْ. وَلَا سَبِيلَ إِلَى عُبُورِ النَّهْرِ بِغَيْرِ مَرْكَبٍ! وَهَيْهَاتَ أَنْ يَخْفَى عَلَى صَاحِبِ الْمَرْكَبِ أَمْرُهُمْ.

وَكَانَتْ خُطَّتُهُمْ أَنْ يُوهَمُوا النَّاسَ أَنَّهُمْ قَدْ ذَهَبُوا طُعْمَةً لِلنَّارِ، حَتَّى لَا يَفْسُدَ تَدْبِيرُهُمْ، فَكَيْفَ يَصْنَعُونَ؟ لَمْ يَبْقَ أَمَامَهُمْ إِلَّا أَنْ يَعُودُوا إِلَى الْغَابَةِ، حَيْثُ يَخْتَبِئُونَ عَنِ الْأَنْظَارِ، رَيْثَمَا تَتَّاحَ لَهُمْ فُرْصَةٌ لِلْخَلَاصِ مِنْ هَذَا الْمَازِقِ. وَإِنَّهُمْ لَيَهْمُونَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْغَابَةِ، إِذْ لَاحَتْ لَهُمُ السَّفِينَةُ الْمَنْشُودَةُ رَاسِيَةً فِي عُرْضِ النَّهْرِ، وَعَلَيْهَا السَّارِيَةُ الْحَمْرَاءُ. فَذَكَرَ «يُدِشْت-هيرا» مَا أَوْصَاهُ بِهِ خَالُهُ «فِيدُورًا» — وَكَانَ لِنَصِيحَتِهِ نَاسِيًا — وَالنَّفَقَتْ إِلَى إِخْوَتِهِ قَائِلًا: «لَنْ أَكُونَ جَدِيرًا بِثِقَتِكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ إِذَا لَمْ تَكُنْ هَذِهِ السَّفِينَةُ هِيَ طَلِبَتَنَا الَّتِي أَرْسَلَهَا خَالُنَا إِلَيْنَا.» ثُمَّ صَاحَ بِكَلِمَةِ السَّرِّ، فَتَلَقَّى جَوَابَ الرُّبَّانِ بِمَا أزالَ شَكَّهُ، وَسُرْعَانَ مَا أَرْسَلَ إِلَيْهِ الرُّبَّانُ قَارِبًا لِيَحْمِلَهُ إِلَى السَّفِينَةِ مَعَ إِخْوَتِهِ. وَلَمْ يَكُنِ الرُّبَّانُ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — غَيْرَ ابْنِ خَالِهِمْ، وَقَدْ لَبِثَ أَشْهُرًا يَنْتَظِرُ عَوْدَتَهُمْ كَمَا أَوْصَاهُ أَبُوهُ. فَلَمَّا عَبَرَ بِهِمُ النَّهْرَ، وَدَعَهُمْ مُتَمَنِّيًا لَهُمْ مَا هُمْ جَدِيرُونَ بِهِ مِنْ نَجَاحٍ وَتَوَفِيقٍ. وَمَا زالَ الْأُمْرَاءُ يَنْتَقِلُونَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، حَتَّى بَلَغُوا مَدِينَةَ «إِكَّاشَكْرًا» وَكَانُوا قَدْ اسْتَبَدَّلُوا بِثِيَابِهِمْ ثِيَابًا جَدِيدَةً صَنَعُوهَا مِنْ رَقِّ الْعِزَالِ، وَعَلَقُوا فِي أَعْنَاقِهِمْ عُقُودًا مِنَ الْخَرَزِ الْمُقَدَّسِ. وَكَانَ شَعْرُهُمْ قَدْ تَشَعَّتْ وَاعْبَرَّ، وَلَوْنُ وُجُوهِهِمْ قَدْ حَالَ وَاصْفَرَ، فَأَعَانَهُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَتَظَاهَرُوا بِمَظْهَرٍ وَفِدٍ مِنْ نُسَاكِ الْبَرَاهِمَةِ قَدِمُوا مِنَ الْحَجِّ. وَكَانَتْ سِمَاتُ النُّبْلِ وَأَمَارَاتُ الْفَضْلِ تَلُوحُ عَلَى سِيْمَاهُمْ، فَنَجَحَتْ حِيلَتُهُمْ، وَجَازَتْ دَعْوَاهُمْ عَلَى كُلِّ مَنْ رَأَاهُمْ. فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمُ النَّاسُ يَتَبَرَّكُونَ بِهِمْ وَيَسْتَفِيضُونَ، مُتَمَسِّينَ نَجْحَ مَطَالِبِهِمْ بِالنَّقْرُبِ إِلَيْهِمْ، وَمُضَاعَفَةَ الْعِنَايَةِ بِأَمْرِهِمْ.»

وَهَكَذَا عَاشَ أَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ» غُرَبَاءَ يَتَرَقَّبُونَ رِسَالَةً مِنْ خَالِهِمْ، تُنِيرُ سَبِيلَ الْعُودَةِ إِلَى دِيَارِهِمْ، وَتُيسِّرُ لَهُمْ اسْتِزْدَادَ مَنْزِلَتِهِمْ فِي «هَسَنَابُورًا» وَطَلَبَهُمُ الْحَبِيبِ.

الفصل الثالث

أَمِيرَةُ الْبَنْغَالِ

(١) رَسَائِلُ الْأَصْفِيَاءِ

وَفَدَّ أَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ» عَلَى مَدِينَةِ «إِكَّاشَكْرَا». وَمَا إِنْ اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمَقَامُ حَتَّى جَاءَتْهُمْ رِسَالَةٌ خَالِهِمْ «فِيدُورَا» وَتَبِعَتْهَا رَسَائِلُ قَلِيلَةٍ أُخْرَى مِنْ بَعْضِ أَصْفِيَائِهِمْ، تَحْمِلُ إِلَيْهِمْ أَنْبَاءَ «هَسَنَابُورَا» وَطَنِهِمُ الْحَبِيبِ. فَعَلِمُوا مِنْ فُحُوَاهَا (مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ) أَنَّ سَوَادَ النَّاسِ (جُمُهورُهُمْ) قَدْ جازَتْ عَلَيْهِمُ الْحَيْلَةَ، وَلَمْ يُساورُهُمُ الشُّكُّ فِي أَنَّهُمْ ذَهَبُوا طُعْمَةً سائِغَةً لِلنَّارِ فِي قَصْرِ الْهَلَاكِ. وَطالَعَتْهُمُ الْأَنْبَاءُ بِمَا اسْتَأَثَّرَ بِهِ «دُرَيْدْهانا» مِنْ نُفُودِ وَسُلْطَانِ، وَكَيْفَ سَلَبَ نُفُودُ أَبِيهِ وَجَدَّهُ وَأَنْصارِهِمَا، وَنَحَّاهُمْ عَنِ الْمُلْكِ.

(٢) مَهْرَجَانُ «الْبَنْغَالِ»

وَكَانَ أَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ» — كَمَا عَلِمَتْ يَفِيضُونَ نَشَاطًا وَقُوَّةً وَتَوْتُبًا وَفَتْوَةً. فَلَمْ يَرْتاحُوا إِلَى حَيَاةِ الْخُمُولِ وَالِدَعَّةِ. وَعَلِمَ أَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ» أَنَّ «دُرُويادا» عَدُوٌّ مُعَلِّمِهِمْ «دُرُونَا» قَدْ أَدَاعَ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ أَنَّهُ سَيَقِيمُ فِي حاضِرَةِ مُلْكِهِ مَهْرَجَانًا عَظِيمًا يَتَنافَسُ فِيهِ الرُّمَاءُ، لِيَخْتارَ أَوَّلَ الْفائِزِينَ زَوْجًا لِابْنَتِهِ فأنْطَلَقُوا مُسْرِعِينَ — فِي زِيِّ النَّسَاكِ الَّذِي اخْتارُوهُ — إِلَى أَنْ بَلَغُوا حاضِرَةَ «الْبَنْغَالِ»، فَعَلِمُوا أَنَّ الْمَلِكَ «دُرُويادا» قَدْ أَعَدَّ — لِلْمُتَبَارِعِينَ فِي مِيدانِ الرِّمائيةِ — امْتِحانًا عَسِيرًا، فَأَمَرَ بِصُنْعِ قَوْسٍ كَبِيرَةٍ مِنْ حَشَبِ مَتِينٍ فِي مِثْلِ صَلابَةِ الْحَدِيدِ، كَمَا أَمَرَ بِتَعْلِيْقِ خاتَمٍ فِي طَرْفِ عَصَا طَوِيلَةٍ مُسْتَدَقَّةٍ، لِيُظَلَّ الخاتَمُ مُعَلَّقًا فِي الْهَوَاءِ، مُتَرَجِّجًا لا ثباتَ لَهُ

وَلَا قَرَارَ. وَجَعَلَ مِنْ شَرَايِطِ النَّجَاحِ فِي الْمُبَارَاةِ أَلَّا يُقْبَلَ فِيهَا إِلَّا سَرِيًّا (شَرِيفٌ) مَاجِدٌ،
يَجْرِي فِي عُرُوقِهِ دَمُ السِّيَادَةِ وَالْإِمَارَةِ. وَلَنْ يَنِمَّ لَهُ الْفَوْزُ إِلَّا إِذَا حَنَى الْقَوْسَ الْكَبِيرَةَ
الصُّلْبَةَ، وَأَطْلَقَ مِنْهَا حَمْسَةَ سِهَامٍ تَبَاعًا، لَا يُخْطِئُ الْهَدَفَ مِنْهَا سَهْمٌ وَاحِدٌ.
ثُمَّ تَفَرَّقَ الْمُنَادُونَ، فَارْتَقَوْا سَلَالِمَ عِشْرِينَ مَعْبِدًا فِي مُخْتَلَفِ أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ،
يُبْصِرُونَ النَّاسَ بِمَا يَعْنِيهِمْ أَنْ يَعْرِفُوهُ عَنِ الْمُبَارَاةِ: مَوْعِدَهَا وَشَرَايِطَ الدُّخُولِ فِيهَا.
فَتَهَافَتَ عَلَى الْمُبَارَاةِ السُّرَاةُ (الْأَشْرَافُ) وَالْأُمَرَاءُ الْمُتَفَرِّدُونَ بِالْبَرَاةِ فِي فَنُونِ الرِّمَايَةِ،
يَحْدُوهُمْ الْأَمَلُ فِي أَنْ يَفُوزُوا بِأَمِيرَةِ «الْبَنْغَالِ»، الْمُنْفَرَّدَةِ بِالْغِنَى وَالطُّهْرِ وَالْجَمَالِ.
فَلَمَّا حَانَ مَوْعِدُ الْمُبَارَاةِ، حَفَلَتِ الْمَدِينَةُ بِالْوَافِدِينَ مِنْ نَظَارَةِ وَمُتَبَارِينَ وَازْدَحَمَتْ
بِجُمُوعِهِمُ الْأَسْوَاقُ، وَعَصَّتْ بِهِمُ الْمِيَادِينُ. فَكَانَتْ فُرْصَةً لِتَرْوِجِ الْبَضَائِعِ وَالسَّلْعِ،
أَتَاخَتْ لِتُجَارِ الْحَيِّ أَنْ يَعْرِضُوا عَلَى الْوَافِدِينَ نَمَاذِجَ ذَهَبِيَّةٍ مُصَغَّرَةً لِقَوْسِ الْمُبَارَاةِ
الْعَظِيمَةِ، لِيُقَدِّمَهَا الزَّائِرُونَ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ هَدَايَا لِمَنْ يُحِبُّونَ. وَلَمْ يَقْصُرْ رِجَالُ الشَّرْطَةِ
فِي حِفْظِ النِّظَامِ وَحِرَاسَةِ الْأَمْنِ.

(٣) الْخَائِبُونَ

وَلَمَّا افْتَتِحَ مِيدَانُ الصِّرَاعِ، تَحَلَّقَ الْمُتَبَارُونَ عَلَى تَبَايُنِ أَسْنَانِهِمْ (أَعْمَارِهِمْ) وَاخْتِلَافِ
بِلَادِهِمْ، حَوْلَ الْمِنَصَّةِ الذَّهَبِيَّةِ الْعَالِيَةِ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَيْهَا قَوْسُ الْمُبَارَاةِ، وَتَدَافَعَ النَّظَارَةُ
مُتَطَلِّعِينَ لِرُؤْيَا الْمُتَبَارِينَ.

وَوَقَفَ إِلَى جِوَارِ الْقَوْسِ حَمْسَةُ فِتْيَانٍ أَقْوِيَاءَ، أُولَى بَأْسٍ أَشَدَّاءَ، يَسْتَرْعُونَ انْتِبَاهَ
النَّظَارَةِ بِمَا يَرْتَدُونَ مِنْ ثِيَابِ الْبَرَاهِمَةِ النَّسَاكِ، وَيَسْتَتِيرونَ إِعْجَابَهُمْ بِمَا يَبْدُو عَلَى
سِيَمَاهُمْ مِنْ دَلَائِلِ الْفُتُوَّةِ، وَأَمَارَاتِ الْبَأْسِ وَالْقُوَّةِ وَظَهَرَتْ «دُرُوبَادِي» أَمِيرَةُ «الْبَنْغَالِ»
فِي أَجْمَلِ زِيٍّ وَأَبْهَى حُلَّةٍ، عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ مِنْ قَوْسِ الْمُبَارَاةِ، تُلَاحِقُهَا عَيْونُ
عَشْرٍ، تَرْنُو إِلَيْهَا فِي شَوْقٍ وَاهْتِمَامٍ. وَهَمَسَ أَكْبَرُ الْإِخْوَةِ قَائِلًا: «أَرْجُو أَنْ يُسْعِدَنِي
الْحِظُّ بِزَوَاجِهَا». فَأَجَابَهُ «أَرْجُونَا»: «لَنْ يَطْفَرَ بِهَا سِوَاكَ». وَحَانَتْ سَاعَةُ الْبَدءِ، فاندَفَعَ
الْمُتَنَافِسُونَ إِلَى الْقَوْسِ يَتَسَابِقُونَ، وَكُلُّهُمْ يُحَاوِلُ جَاهِدًا أَنْ يَحْبِيَ الْقَوْسَ، فَلَا يَطْفَرَ



مَنْ مُحَاوَلَتِهِ بَغَيْرِ الْخَيْبَةِ وَالْإِخْفَاقِ. وَكَانَ نَسَاكُ الْبَرَاهِمَةِ الْخَمْسَةِ يَبْتَسِمُونَ كُلَّمَا شَهِدُوا
عَجَزَ الْمُتَنَافِسِينَ.

(٤) الْفَائِزُ الْأَوَّلُ

ثُمَّ فُوجِيَ أَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ» بِمَا لَيْسَ فِي حُسْبَانِهِمْ، فَغَاضَتِ ابْتِسَامَتُهُمْ، وَتَبَدَّلَ أُنْسُهُمْ
وَحَشَّةً وَانْقِبَاضًا. حِينَ سَمِعُوا صَوْتَ الْمُنَادِي يُعْلِنُ اسْمَ «كَرْنَا». يَا لِلْعَجَبِ! مَا الَّذِي
جَاءَ بِخَضْمِهِمُ الْعَنِيدِ، وَشَيْطَانِهِمُ الْمَرِيدِ!

وَرَأَوْا «كَرْنَا» يَصْعَدُ إِلَى الْمِنْصَةِ — دُونَ أَنْ يَفْطَنَ إِلَى أَعْيُنِهِمُ الْعَشِيرَ الَّتِي يَكَادُ
الشَّرْرُ يَتَطَايَرُ مِنْهَا — ثُمَّ يُمْسِكُ بِالْقَوْسِ وَهِيَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ «أَرْجُونَا» وَإِخْوَتِهِ؛ وَإِنَّهُمْ
لِيَكَادُونَ يَلْتَهُمُونَهُ بِأَنْظَارِهِمْ، وَيَزْلِقُونَهُ بِأَبْصَارِهِمْ. وَقَالَ «أَرْجُونَا» يُسَائِلُ نَفْسَهُ مُتَلَهِّفًا:
«أَتَرَاهُ يَفُوزُ؟ أَتَكُونُ أَمِيرَةً «الْبَنْغَالِ» مِنْ نَصِيْبِهِ؟» وَأَمَسَكَ الْفَتَى بِالْقَوْسِ يَحْنِيهَا فِي



مَشَقَّةٍ وَعُسْرٍ وَإِذْهَاقٍ، وَتَصَبَّبَ وَجْهُهُ عَرَقًا. «أَتْرَاهُ يَفُوزُ؟» وَحَبَسَ النَّظْرَةَ أَنْفَاسَهُمْ
 مَأْخُودِينَ بِمَا يَشْهَدُونَ. هَا هِيَ ذِي قَوْسِ الْمُبَارَاةِ تَلِينُ بَعْدَ اسْتِعْصَاءِ، وَيَنْحَنِي وَتَرَهَا.
 «أَتْرَاهُ يَفُوزُ؟» أَيُّ جَهْدٍ مُضِنٍ يَبْدُلُهُ الْفَتَى! إِنَّ سَاعِدَيْهِ (ذِرَاعِيهِ) تَكَادَانِ تَنْخَلِعَانِ.
 «أَتْرَاهُ يَنْهَزِمُ؟» كَلَّا فَقَدْ تَجَدَّدَتْ عَزِيمَتُهُ، وَالتَّهَبَّتْ حِمَاسَتُهُ، فَشَدَّ الْقَوْسَ وَتَنَاهَا، وَرَمَى
 سَهَامَهُ الْأَحْمَسَةَ، فَلَمْ تُحْطِ مَرْمَاهَا. لَقَدْ فَازَ «كَرْنَا» وَتَعَالَتْ لِفَوْزِهِ صَيْحَاتُ الْمُعْجَبِينَ
 تَشْتَقُّ أَجْوَازَ الْفُضَاءِ، وَأَنْطَوَتْ صَيْحَاتُ مُنَافِسِيهِ، بَيْنَ هَتَافِ مُهْنِيِّهِ. وَقَفَزَ «دُرَيْدْهَانَا»
 إِلَى صَدِيقِهِ «كَرْنَا» فِي فَرْحَةٍ طَاعِغِيَّةٍ وَابْتِهَاجٍ شَدِيدٍ مُمَسِّكًا بِيَدِهِ، لِيَقْدَمَهُ إِلَى أَمِيرَةِ
 «الْبَنْغَالِ» وَهِيَ جَالِسَةٌ أَمَامَ سُرَادِقِهَا الْحَرِيرِيِّ، مُرْتَدِيَةٌ حُلَّةَ الْعُرْسِ. وَفُوجِي النَّظْرَةَ
 بِمَا لَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ عَلَى بَالٍ، حِينَ رَأَوْا أَمِيرَةَ «الْبَنْغَالِ» تَنْهَضُ مِنْ كُرْسِيِّهَا مُتَّجِهَةً إِلَى

«دُرَيْدَهَانَا» تَسْأَلُهُ فِي صَوْتِ جَهَوْرِيٍّ وَاضِحِ النَّبْرَاتِ: «حَبَّرْنِي عَنْ صَاحِبِكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ. مَنْ أَبُوهُ؟ فَإِنَّ أَوَّلَ شَرَايِطِ الْمُبَارَاةِ - فِيمَا تَعْلَمُ - أَلَّا يَشْتَرِكَ مَنْ لَا يَجْرِي فِي عُرُوقِهِ دَمُ الْإِمَارَةِ وَالنُّبْلِ. وَلَعَلَّكَ سَمِعْتَ - فِيمَا سَمِعْتَ - أَنَّ وَالِدَ هَذَا الْفَتَى لَمْ يَكُنْ - إِذَا صَحَّتِ الشُّوَائِعُ - إِلَّا حُوذِيًّا. فَكَيْفَ يَطْمَعُ ابْنُ حُوذِيٍّ فِي زَوْاجِ أَمِيرَةِ «الْبَنْغَالِ»؟»

أَيُّ مُفَاجَاةٍ بَاعْتَثَهُ الْأَمِيرَةُ بِهَا؟ إِنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ قَطُّ فِي جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ، وَلَمْ يَخْطُرْ لَهُ قَبْلَ الْيَوْمِ عَلَى بَالٍ. لَقَدْ وَفَدَ عَلَيْهِمْ «كَرْنَا» وَانْدَمَجَ فِي رِفْقَتِهِمْ، دُونَ أَنْ يَسْأَلَهُ أَحَدٌ عَنْ مَوْطِنِهِ وَأَسْرَتِهِ، وَأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ.

وَأَمْتَقَعَ وَجْهَ ابْنِ «الضَّرِيرِ» مِنْ شِدَّةِ الْخَجَلِ وَهَوْلِ الْمُفَاجَاةِ، وَالتَفَتَ إِلَى صَاحِبِهِ يَنْتَظِرُ إِبَابَتَهُ، فَرَأَاهُ صَامِتًا لَا يُجِيبُ، وَقَدْ عَلَتْ وَجْهَهُ بَهْتَةٌ الْمُتَحَرِّيرِ الْمُرِيبِ، يَهْزُ رَأْسَهُ مِنَ الْحَيْرَةِ، وَيَعُضُّ الطَّرْفَ (يُعْمِضُ الْعَيْنَ) وَلَا يَنْطِقُ بِحَرْفٍ.

فَقَالَتِ الْأَمِيرَةُ: «فَلْيُعِدْ صَاحِبُكَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ، وَلْيَذْهَبْ حَيْثُ شَاءَ.»

فَلَمْ يَزِدْ «كَرْنَا» عَلَى أَنْ بَسَطَ ذِرَاعَيْهِ، وَرَفَعَ إِلَى كَوْكَبِ الشَّمْسِ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ كَرَّ رَاجِعًا، وَانْطَلَقَ صَاحِبُهُ فِي أَثَرِهِ، وَلَفَّهُمَا الرَّحَامُ فَعَيَّبَهُمَا فِي أَطْوَانِهِ. وَعَادَتِ الثَّقَّةُ إِلَى قَلْبِ «أَرْجُونَا» بَعْدَ فَقْدَانِ الْأَمَلِ، وَلَمْ يُطِقْ صَبْرًا عَلَى الْبَقَاءِ، فَاسْرَعَ إِلَى الْأَمِيرَةِ وَحَيَّاهَا قَائِلًا: «أَمَا أَنَا فَمَعْرُوفُ الْأَصْلِ، عَرِيقٌ فِي الْإِمَارَةِ، بَرَعَمَ مَا تَرَيْنَ مِنْ حُسُونَةِ مَظْهَرِي. فَهَلْ تَأْذِنِينَ لِي فِي أَنْ أُجَرِّبَ حَظِّي؟»

فَحَنَّتِ الْأَمِيرَةُ رَأْسَهَا مُوَافِقَةً.

(٥) فَارِسُ الْمِيدَانِ

وَعَلَى مَشْهَدٍ مِنَ الْجَمْعِ الْحَاشِدِ تَوَجَّهَ النَّاسُ الْبُرْهَمِيُّ إِلَى الْقَوْسِ، فَرَفَعَهَا بِإِحْدَى يَدَيْهِ، وَشَدَّ بِالْأُخْرَى وَتَرَاهَا، فَانْحَنَتْ فِي يَدِهِ أَشَدَّ انْحِنَاءٍ، وَانْطَلَقَتْ سَهَامُهُ الْخَمْسَةُ تَبَاعًا، مُسَدِّدَةً إِلَى هَدَفِهِ سِرَاعًا. وَاسْتَوَى الدَّهْشُ وَالْإِعْجَابُ عَلَى النَّظَّارَةِ بِمَا شَهِدُوهُ مِنْ بَرَاعَةِ «أَرْجُونَا» وَقُوَّتِهِ، فَارْتَفَعَ هَتَافُهُمْ بِتَحِيَّتِهِ، وَدَوَّى تَصْفِيقُهُمْ إِعْجَابًا بِقُدْرَتِهِ. وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِ الْأَمِيرَةُ تَحِيَّتِهِ وَتَهْنِئَتِهِ فِي ابْتِسَامٍ وَإِعْجَابٍ، ثُمَّ شَفَعَتْ تَحِيَّتَهَا وَتَهْنِئَتَهَا بِقَوْلِهَا: «إِنَّ

مَا يَبْدُو عَلَى قِسْمَاتِ وَجْهِكَ، وَمَا شَهِدْنَا مِنْ آيَاتِ مَجْدِكَ وَكَمَالِ مُرُوءَتِكَ، لَدَلِيلٍ أَيْ
دَلِيلٍ عَلَى أَنَّكَ عَرِيقٌ فِي الْإِمَارَةِ أَصِيلٌ.»

وَبَدَا الْغَيْظُ وَالْحَنَقُ عَلَى وَجْهِ الْمَلِكِ — أَوَّلَ الْأَمْرِ — حِينَ رَأَى النَّاسِكَ الْبُرْهَمِيَّ
يَظْفَرُ فِي الْمُبَارَاةِ، وَلَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا عَمَرَهُ الْفَرَحُ حِينَ دَانَاهُ، وَتَبَيَّنَ مَلَامِحُهُ وَسِيمَاهُ،
فَهَشَّ لَهُ وَحْيَاهُ.

ثُمَّ حَتَمَ تَحِيَّتَهُ بِقَوْلِهِ: «لَقَدْ بَهَرْتَنِي شَجَاعَتُكَ وَشَجَاعَةُ إِخْوَتِكَ حِينَ قَدِمْتُمْ إِلَى
مَمْلَكَتِي غَزَاةً فَاتِحِينَ، مُتَوَتِّبِينَ لِنُصْرَةِ «دُرُونَا» مُتَحَمِّسِينَ. وَكَانَ مِنْ أَشْهَى رَغَبَاتِي
وَأَكْبَرِ أُمْنِيَّاتِي، أَنْ يُسْعِدَنِي الْحَطُّ بِتَرْوِيجِ ابْنَتِي وَاحِدًا مِنْكُمْ. وَقَدْ أَظْفَرَنِي الْقَدْرُ بِمَا
أَتَمَّنَاهُ، فَشَكَرًا لِلَّهِ.» فَقَالَ «أَرْجُونَا»: «لَقَدْ اخْتَارَهَا عَمِيدُ أُسْرَتِنَا زَوْجًا لَهُ!»

فَأَجَابَهُ الْمَلِكُ: «مَا أَسْعَدَهَا بِهِ.» وَلَمْ يَكُنْ ابْتِهَاجُ الْأَمِيرَةِ بِأَقْلٍ مِنْ ابْتِهَاجِ أَبِيهَا، حِينَ
عَلِمَتْ أَنَّ شَرِيكَ حَيَاتِهَا هُوَ عَمِيدُ أُسْرَةِ «الشَّهِيدِ» وَخَلِيفَةُ «بِهَشْمَا» فِي مُلْكِهِ السَّعِيدِ،
وَأَيَّقَنْتْ أَنَّهَا سَتُنْصَبُ بَعْدَ قَلِيلٍ مَلَكَةً «هَسَنَابُورًا». وَتَمَّتْ مَرَامِسُ الزَّوْاجِ، وَذَاعَ مَا كَانَ
مَطُوبِيًّا مِنْ أَنْبَاءِ الْأَمْرَاءِ، وَانْتَقَلَتِ الْبِشَائِرُ إِلَى وَطَنِهِمْ فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبُرْقِ.



فَابْتَهَجَ لَهَا الْأَهْلُونَ أَيَّمَا ابْتِهَاجٍ، وَاشْتَدَّ فَرَحُ «بِهَشْمَا» فَجَمَعَ مَجْلِسَ الشُّورَى عَلَى
عَجَلٍ، لِيُعِيدَ إِلَيْهِمْ مَا سَلَبَهُ ابْنُ عَمِّهِمْ مِنْ حَقِّهِمْ. وَانْتَهَى قَرَارُ الْمَجْلِسِ إِلَى قِسْمَةِ
الْمَمْلَكَةِ بَيْنَ أَنْبَاءِ «الضَّرِيرِ» وَأَنْبَاءِ «الشَّهِيدِ».

وَلَمْ يَسَعِ «دُرَيْدَهَانَا» أَنْ يُعَارِضَ قَرَارَهُمْ، بَعْدَ أَنْ رَأَى سُرَاةَ الدَّوَلَةِ وَأَعْيَانَهَا يُجْمَعُونَ عَلَيْهِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ أَبُوهُ، فَلَمْ يَسَعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَظَاهَرَ بِالْقَبُولِ، وَيَحْنِي رَأْسَهُ لِلْعَاصِفَةِ حَتَّى تَمُرَّ بِسَلَامٍ، وَهُوَ يُضِمُّرُ الْكَيْدَ لَهُمْ وَالْإِيقَاعَ بِهِمْ. وَرَاحَ الْخَبِيثُ يُعِدُّ عَلَى الْمَالِ عَلَى أَنْصَارِهِ وَمُؤَيِّدِيهِ، وَيَرْشُو مِنْ يَقْفٍ مِنْ مَعَارِضِيهِ، وَيَفْتِكُ بِمَنْ يُصِرُّ عَلَى مُنَاوَأَتِهِ، بَعْدَ أَنْ يَبْأَسَ مِنْ اسْتِجْلَابِ مَوَدَّتِهِ. وَمَا زَالَ يُحَاوِرُهُمْ وَيُدَاوِرُهُمْ، حَتَّى انْتَهَى قَرَارُهُمْ إِلَى أَنْ يَسْتَأْتِرَ بِالنِّصْفِ الْعَامِرِ الْإِهْلِ بِالسُّكَّانِ، تَارِكًا لِأَبْنَاءِ عَمِّهِ النِّصْفِ الْغَامِرِ (الْمُجْدِبِ الْمُهْجُورِ). فَلَمْ يَجِدُوا بَدَأًا مِنَ التَّسْلِيمِ بِمَا قَضَى بِهِ وَحَكَمَ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ طُغْيَانِهِ، وَعَجَزِ جَدِّهِمْ عَنْ نَقْضِ مَا أُبْرِمَ. فَاتَّخَذُوا أَهْبَتَهُمْ، وَأَعَدُّوا لِلرَّحِيلِ عُدَّتَهُمْ، وَمَا زَالُوا يُوَاصِلُونَ السَّيْرَ حَتَّى بَلَغُوا مَمْلَكَتَهُمْ الْمُجْدِبَةَ الْفَقِيرَةَ، وَهُمْ عَلَى ثِقَةٍ بِقُدْرَتِهِمْ عَلَى بَعْثِ الْحَيَاةِ فِي جَدْبِهَا وَمَوَاتِهَا، وَإِشَاعَةِ الْخُصْبِ وَالنَّمَاءِ فِي صَحَارِيهَا الْقَاحِلَةِ وَفَلَوَاتِهَا، بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ دُؤُوبٍ وَمُتَابِرَةٍ وَصَبْرٍ عَلَى مُكَافَحَةِ الْأَهْوَالِ، وَعَزِيمَةٍ كَالْحَدِيدِ تَدُكُّ الْجِبَالَ. وَكَانَتْ حَاضِرَةٌ مُلْكِهِمُ الْجَدِيدَةُ أَوَّلَ مَا وَجَّهُوا إِلَيْهِ هِمَّتَهُمْ، وَفَوَّقُوا إِلَيْهِ عَزِيمَتَهُمْ. فَبَدَّءُوا بِإِصْلَاحِهَا وَتَعْبِيدِ طُرُقَاتِهَا وَتَخْطِيطِ بَسَاتِينِهَا وَمُنْتَزَعَاتِهَا، وَهَدَمَ مَا تَدَاعَى مِنْ دُورِهَا وَمَعَابِدِهَا، وَأَقَامُوا عَلَى أَنْقَاضِهَا صُرُوحًا بِازِحَّةً وَمَعَابِدَ فَحْمَةً، بَعْدَ أَنْ جَلَبُوا كِبَارَ مَهَنْدِسِي الْهِنْدِ، وَبَدَّلُوا لَهُمْ مَا وَسَعَهُمْ مِنْ تَشْجِيعٍ وَمَالٍ، فَلَمْ يَمُضْ زَمَنٌ قَلِيلٌ حَتَّى أَصْبَحَتْ حَاضِرَةٌ مُلْكِهِمْ أَفْحَمَ حَوَاضِرِ الْهِنْدِ، وَأَصْبَحَ قَصْرُ جَدِّهِمْ يَتَضَاعَلُ بِالْقِيَاسِ إِلَى قَصْرِهِمُ الَّذِي تَخَيَّرُوا لَهُ أَحْسَنَ مِيدَانٍ، وَتَأَنَّقُوا فِي هِنْدَسَتِهِ وَرَزَخَرَفَتِهِ، حَتَّى عَدَا جَدِيرًا بِسُكْنَى أَمِيرَةِ «الْبَنْغَالِ». وَأَقَامُوا دَارًا عَظِيمَةً يَرْتَادُهَا الْمُطَالِعُونَ، وَجَلَبُوا مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ نَفَائِسِ الْكُتُبِ.

وَزَخَرَتْ الْحَاضِرَةُ بَعْدَ أَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا النَّاسُ مِنْ كُلِّ صُقْعٍ، فَدَبَّتِ الْحَيَاةُ فِي أَرْجَائِهَا، وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَتْ مِنْ أَعْنَى حَوَاضِرِ الْهِنْدِ وَأَحْفَلِهَا بِالسُّكَّانِ. فَلَمَّا تَمَّ لِأَبْنَاءِ «الشَّهِيدِ» مَا أَرَادُوا، وَجَّهُوا جُهُودَهُمْ لِإِصْلَاحِ مَا جَاوَرَهَا مِنَ الْبِلَادِ، فَصَنَعُوا بِهَا صَنِيعَهُمْ بِالْعَاصِمَةِ، وَشَقُّوا الْجُدَاوِلَ فِي الْمَزَارِعِ، وَأَقَامُوا الْجُسُورَ، وَالِدَّسَاكِرَ وَاللُّدُورَ، وَمَا زَالُوا يَتَعَهَّدُونَهَا بَلَدًا بَعْدَ آخَرَ، حَتَّى أَصْبَحَتْ قُرَاهَا وَمَدَائِنُهَا تُنَافِسُ الْحَاضِرَةَ فِي الثَّرْوَةِ وَالْعُمُرَانِ، حَافِلَةً بِمَعَاهِدِ الْعِلْمِ، وَأَسْوَاقِ التَّجَارَةِ، وَحَمَامَاتِ السَّبَاحَةِ، وَالْبَسَاتِينِ وَالْمَرْجِ وَالْمُنْتَزَعَاتِ.

فَلَمَّا عَادُوا بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُمْ مَا أَرَادُوا، فَكَّرُوا فِي إِقَامَةِ مَهْرَجَانٍ عَظِيمٍ ابْتِهَاجًا
بِتَبْوِجِ أَحِبِّهِمُ الْأَكْبَرِ. وَدَعَوْا إِلَيْهِ مَنْ جَاوَرَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ وَأَمْرَائِهَا، وَلَمْ يَسْتَتِنُوا مِنْ
دَعْوَتِهِمْ أَبْنَاءَ عَمِّهِمْ، بَرَعَمَ مَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ بُغْضِهِمْ لَهُمْ وَعَدَاوَتِهِمْ. وَكَانَ «دُرَيْدُهَانَا»
— كَمَا عَلِمَتْ — شَائِنًا لَهُمْ حَقُّودًا، مُضْطَغِنًا عَلَيْهِمْ حَسُودًا. وَكَانَ كَمَا رَأَيْتَ لَا يَفْتُرُ
حَسَدُهُ، وَلَا يَهْدَأُ حِقْدُهُ، وَلَا يَفْرُعُ كَيْدُهُ، فَلَمَّا شَهِدَ الْمَهْرَجَانَ، وَرَأَى مَا دَبَّ فِي مُلْكِهِمْ مِنْ
الْعُمَرَانِ، وَشَهِدَ مَدِينَةَ «اندربرستا» الَّتِي شَيَّدُوها عَلَى أَجْمَلِ طِرَازٍ وَأَبْنَى غِرَارٍ، وَرَأَى
قَصْرَهُمُ الْعَظِيمَ تَحْفَهُ الْمُرُوجُ وَالْبَسَاتِينُ، أَمْتَلَأَ قَلْبُهُ بِالْغَيْظِ وَالْحَنَقِ، فَكَادَ يَحْتَرِقُ،
وَكَادَتْ مَرَارَتُهُ تَنْشَقُّ. وَضَاعَفَ مِنْ بُغْضِهِ وَشَنَائِهِ، وَزَادَ فِي غَضَبِهِ وَأَحْزَانِهِ، مَا جَرَّهُ
إِلَيْهِ الْغَيْظُ مِنْ حَيْرَةٍ وَعَقْلَةٍ أَذْهَلَهُ، وَعَطِيَا عَلَى بَصَرِهِ وَأَعْمِيَاهُ، فَرَاخَ يَتَحَبَّطُ فِي طَرِيقِهِ
وَيَتَعَثَّرُ، فِي غَيْرِ هَدْيٍ وَلَا تَبَصُّرٍ، وَهَمَّ بِدُخُولِ إِحْدَى حُجْرَاتِ الْقَصْرِ، وَكَانَتْ أَرْضُهَا مِنْ
الْبُلُورِ فَحَسَبَهَا بَرَكَةً مَاءٍ، فَشَمَّرَ عَنْ سَاقِيهِ حَتَّى لَا تَبْتَلَّ ثِيَابُهُ.
ثُمَّ أَفَاقَ مِنْ ذُهُولِهِ، فَأَدْرَكَ خَطَأَهُ، فَحَجَلَ مِمَّا صَنَعَ. وَتَعَالَتْ ضَحِكَاتُ السَّاجِرِينَ،
فَزَادَتْ فِي حَيْرَتِهِ، فَلَمَّا انْتَقَلَ إِلَى رُذْمَةِ الْقَصْرِ رَأَى فِي وَسْطِهَا بَرَكَةً مَاءٍ، فَحَسَبَهَا بَلُورًا،
فَوَقَعَ فِيهَا. وَاشْتَدَّ ارْتِبَاكُهُ حِينَ اعْتَرَضَهُ بَابٌ رُجَاجِيٌّ لَا يَعْتَرِضُ الْعَيْنَ لِشُفُوفِهِ، وَلَا
يَحْجُبُ مَا وَرَاءَهُ لَصَفَائِهِ. وَكَانَ رُجَاجُ الْقَصْرِ — نَوَافِذِهِ وَأَبْوَابِهِ — آيَةً فِي صَفَاءِ مَعْدِنِهِ،
وَرِقَّةٍ مُسْتَشْفَاهِ (الْمَوْضِعِ الَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ فَتَرَى مَا وَرَاءَهُ) كَأَنَّما عَنَاهُ «ابْنُ الرُّومِيِّ»
الشَّاعِرُ الْمُبْدِعُ بِقَوْلِهِ:

«تَنْفُذُ الْعَيْنُ فِيهِ حَتَّى تَرَاهَا أَخْطَأَتْهُ مِنْ رِقَّةِ الْمُسْتَشْفَى.»

فَأَخْطَأَتْهُ عَيْنَا «دُرَيْدُهَانَا»، وَلَمْ يَفْطِنْ إِلَيْهِ حِينَ رَأَاهُ، فَكَسَرَهُ وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ
يَجْتَازَهُ وَيَتَخَطَّاهُ. وَتَوَالَى خَطْوُهُ، وَلَجَّ بِهِ عِنَارُهُ، فَأَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ الْكَيْدَ وَالانْتِقَامَ. وَلَمَّا
عَادَ إِلَى بَلَدِهِ أَعَدَّ لِانْتِقَامِهِ خُطَّةً مَآكِرَةً. وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّ كَبِيرَ أَبْنَاءِ «الشَّهِيدِ» يَفُوقُهُ فِي
فُنُونِ الرِّمَاطِيَّةِ وَمِيدَانِ الْحَرْبِ، وَلَكِنَّهُ يَعْجُزُ عَنْ مَجَارَاتِهِ فِي النُّزْدِ وَالشَّطْرَنْجِ وَمَا إِلَيْهِمَا
مِنْ فُنُونِ اللَّعِبِ. وَكَانَتْ الْإِمَارَةُ وَالْفُرُوسِيَّةُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ — لِسُوءِ الْحِظِّ — لَا تَكْمَلَانِ
إِلَّا بِإِجَادَتِهِمَا وَالْبَرَاعَةِ فِيهِمَا. وَقَدْ عَرَفَ ابْنُ «الضَّرِيرِ» أَنَّ ابْنَ عَمِّهِ سَرِيعَ الْغَضَبِ إِذَا

غَلِبَ. وَهَذَا مَكْمُنٌ ضَعِيفُهُ. وَمَجَالُ هَزِيمَتِهِ. وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ الْعَضْبَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى صَاحِبِهِ سَلَبَهُ عَقْلَهُ، وَمَكَّنَ عَدُوَّهُ مِنْ مَقْتَلِهِ. وَكَانَ قَانُونُ الْفُرُوسِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ — حِينَئِذٍ — يُفْضِي عَلَى الْفَارِسِ أَنْ يُلَبِّيَ دَعْوَةَ مَنْ يَتَحَدَّاهُ إِذَا دَعَاهُ إِلَى الْحَرْبِ، أَوْ دَعَاهُ إِلَى الشُّطْرَنْجِ وَالنَّرْدِ. فَإِذَا تَرَدَّدَ فِي قَبُولِ تَحَدِّيهِ أَوْ رَفُضِ دَعْوَتِهِ، فَقَدَّ مَكَانَتَهُ وَمَنْزِلَتَهُ. وَأَضَاعَ صِيئَتَهُ وَسُمْعَتَهُ. وَكَانَ أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ ابْنُ «الضَّرِيرِ» بَعْدَ أَنْ عَادَ إِلَى حَاضِرَةِ مُلْكِهِ، أَنْ وَجَّهَ الدَّعْوَةَ لِابْنِ عَمِّهِ لِلْحَفْلَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِتَكْرِيمِهِمْ وَالْحَفَاوَةَ بِهِمْ، تَقْدِيرًا لِمَا وُفِّقُوا إِلَيْهِ مِنْ نَجَاحٍ فِي تَجْدِيدِ مَمْلَكَتِهِمْ.

فَلَمَّا يَسَعُهُمْ إِلَّا قَبُولُ دَعْوَتِهِ. وَانْتَهَرَ ابْنُ «الضَّرِيرِ» فُرْصَةَ الْحَفَاوَةِ بِهِمْ لِتَنْفِيذِ مَا دَبَّرَهُ، فَالْتَفَتَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ «يُدِشْت-هيرا» يَدْعُوهُ فِي تَحَدٍّ وَإِصْرَارٍ إِلَى النَّرْدِ، فَوَجَّهَ الْأَمِيرَ وَامْتَنَعَ وَجْهَهُ (اصْفَرَّ)، وَسَأَلَهُ أَنْ يُعْفِيَهُ. فَأَجَابَهُ ابْنُ «الضَّرِيرِ»: «يَا لِبُعَاثِ! أَهَكَذَا يَسْتَوِي عَلَيْكَ الْخَوْفُ وَالْجُبْنُ فَتَهْرَبَ مِنَ الْمِيدَانِ؟»

فَعَضِبَ ابْنُ «الشَّهِيدِ» وَنَارَ، وَلَمْ يَجِدْ سَبِيلًا لِلْفِرَارِ.

وَبَدَأَتْ الْمُبَارَاةُ، وَالتَّفَّ حَوْلَهُمَا رِجَالُ الْقَصْرِ يَمْزُحُونَ وَيَنْفَكِّهُونَ، وَتَوَجَّسَ أَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ» شَرًّا، فَحَيَّمْ عَلَيْهِمُ الصَّمْتُ وَالْوُجُومُ. وَانْتَحَوْا مَكَانًا قَرِيبًا وَهُمْ عَلَى ثِقَةٍ بِسُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَلَكِنْ لَا حِيلَةَ لَهُمْ فِي دَفْعِ الْمَقْدُورِ، وَقَدْ غَلِبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى وَسِيلَةٍ تُخْرِجُهُمْ مِنَ الْمَازِقِ الَّذِي وَرَطَّهُمْ فِيهِ ابْنُ «الضَّرِيرِ». وَانْتَهَتْ الْجَوْلَةُ الْأُولَى بِهَزِيمَةٍ «يُدِشْت-هيرا»، فَشَحَبَ وَجْهَهُ وَارْتَعَشَتْ يَدَاهُ، وَأَسْلَمَهُ الْعَضْبُ إِلَى مُضَاعَفَةِ الرَّهَانِ. فَلَمْ يَكُنْ حَظُّهُ فِي الْجَوْلَةِ الثَّانِيَةِ خَيْرًا مِنْهُ فِي الْجَوْلَةِ الْأُولَى، فَاحْتَدَمَ غَضَبُهُ وَزَادَ رِهَانَهُ. وَمَا زَالَ يَشْتَدُّ بِهِ الْعَضْبُ فَيَزِيدُ فِي الرَّهَانِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. وَانْقَضَتِ السَّاعَاتُ، وَسَادَ الصَّمْتُ وَأَطْبَقَ السُّكُونُ عَلَى الْحَاضِرِينَ. وَمَا زَالَ الْمُتَبَارِعَانِ، يَزِيدَانِ فِي الرَّهَانِ وَيُضَاعِفَانِ، حَتَّى تَمَّتِ الْعَلْبَةُ لِابْنِ «الضَّرِيرِ» عَلَى ابْنِ عَمِّهِ. وَأَضَاعَ ابْنُ «الشَّهِيدِ» كُلَّ مَا يَمْلِكُ هُوَ وَإِخْوَتُهُ مِنْ ثَرْوَةٍ وَمَالٍ.

فَهَلْ وَقَفَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ؟ كَلَّا، بَلْ أَسْلَمَهُ الْعَضْبُ إِلَى مَا يُشْبِهُ الْجُنُونَ فَصَاحَ قَائِلًا: «أَرَاهُنُ بِقَصْرِي.» فَلَمَّا أَضَاعَهُ، قَالَ: «مَمْلَكَتِي، إِخْوَتِي، نَفْسِي.» وَسُرَّعَانَ مَا فَقَدَهُمْ جَمِيعًا، وَأَصْبَحَ أَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ» خَدَمًا لِابْنِ عَمِّهِمْ عَبِيدًا. وَاسْتَوَى عَلَيْهِ الْخَبَالُ فَقَالَ:



«هَلْ بَقِيَ لِي شَيْءٌ أُرَاهُنُ عَلَيْهِ؟» فَأَجَابَهُ الْمَاكِرُ الْخَبِيثُ: «بَقِيَتْ زَوْجَتُكَ» فَقَالَ: «نَعَمْ نَعَمْ وَسَأُرَاهُنُ بِهَا أَيْضًا». وَسُرِعَانَ مَا أَضَاعَ زَوْجَتَهُ، كَمَا أَضَاعَ مَالَهُ وَتَرَوَتَهُ، وَنَفْسَهُ وَإِخْوَتَهُ، وَهُنَا صَاحَ ابْنُ «الضَّرِيرِ» صَيْحَةَ الْفَائِزِ الْمُنْتَصِرِ سَاخِرًا مُسْتَهْزِئًا:

«الآنَ تَمَّ لِي النَّصْرُ عَلَيْكُمْ، فَأَصْبَحْتُ لَكُمْ سَيِّدًا، وَأَصْبَحْتُمْ لِي عِبِيدًا، أَتَصَرَّفُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَبِلَادِكُمْ وَكُنُوزِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ كَمَا أَشَاءُ. الآنَ أَشْفِي غَلِيْلِي، فَأَمْرٌ بِنَفْسِكُمْ ثَلَاثَةَ عَشْرَ عَامًا كَامِلَةً، كَمَا أَمْرٌ أَنْ تُصْبِحَ زَوْجَتُكَ «دُرُويَايِ» مُنْذُ الآنَ فِي قَصْرِي أَمَةً مَاهِنَةً (مُسْتَعْبَدَةً خَادِمَةً) تُنْظَفُ طَرِيقِي مِنَ الْغُبَارِ، أَنِّي ذَهَبْتُ وَحَيْثُمَا سِرْتُ.»



وَهُنَا دَوَى صَوْتُ نَسْوِيٍّ يَقُولُ مُتَحَدِّيًا: «ذَلِكَ مَا لَا يَكُونُ؛ كَلَّا لَنْ يَكُونَ مَا تُرِيدُ
 أَيُّهَا الشَّيْطَانُ الْمَرِيدُ.» وَتَلَفَّتَ الْحَاضِرُونَ فَرَأَوْا «دُرُويَادِي» قَادِمَةً عَلَيْهِمْ فِي تَوْبِهَا
 الْجَمِيلِ، وَسَمِعُوهَا تُتِمُّ مَا بَدَأَتْهُ مِنْ وَعِيدٍ وَتَهْدِيدٍ. فَكَيْفَ قَدِمَتْ؟ كَانَ قَلْبُهَا يُحَدِّثُهَا
 بِمَا جَرَى بَيْنَ أَبْنَاءِ الْعَمِّ. وَهَتَفَ بِهَا هَاتِفٌ مِنَ الْغَيْبِ بِأَنَّ قَضَاءَ قَاهِرًا يَنْتَظِرُ رُوجَهَا

وَإِخْوَتَهُ فِي «هَسْنَابُورَا» فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِ لِتُنْذِرَهُ وَتُحَذِّرَهُ، فَلَمْ تَصِلْ إِلَّا نَبِيئًا (بَعْدَ فَوَاتِ الْوَقْتِ). وَرَأَتْ مَا يَرْتَسِمُ عَلَى وَجْهِ الْقَوْمِ مِنْ وُجُومٍ وَحَسْرَةٍ، وَارْتِبَاكِ وَحَيْرَةٍ، فَقَالَتْ: «حَدَّثُونِي أَيُّهَا السَّادَةُ بِمَا جَدَّ مِنْ شَأْنٍ، وَمَا حَدَثَ مِنْ أَمْرٍ»، فَقَصَّ عَلَيْهَا «أَرْجُونَا» — فِي لَهْجَةٍ حَزِينَةٍ — تَفْصِيلًا مَا حَدَثَ. فَارْتَسَمَتْ عَلَى تَعْرِهَا ابْتِسَامَةٌ الطَّمَأْنِينَةِ وَالثَّقَةِ، وَقَالَتْ مُسَائِلَةً: «خَبِّرُونِي أَيُّهَا السَّادَةُ. أَيْسْتَطِيعُ الْعَبْدُ أَنْ يَمْلِكَ؟ أَيْسْتَطِيعُ الْعَبْدُ أَنْ يَبِيعَ أَوْ يَهَبَ (يَمْنَحَ)؟ أَيْسْتَطِيعُ مَنْ وَقَعَ فِي أَسْرِ الْعُبُودِيَّةِ أَنْ يَبِيعَ مَنْ يَمْرُحُ فِي بَحْبُوحَةِ الْحُرِّيَّةِ؟» فَاقْتَنَعَ بِكَلَامِهَا الْحَاضِرُونَ، مُؤْمِنِينَ بِصَوَابِ مَا قَالَتْهُ مُصَدِّقِينَ. وَاجْتَمَعَ الرَّأْيِيُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ. فَاسْتَأْنَفَتْ قَائِلَةً مُوجِّهَةً حَدِيثَهَا إِلَى ابْنِ «الضَّرِيرِ»: «فَكَيْفَ يَجُوزُ لِعَبْدٍ فَقْدَ نَفْسِهِ وَسَلْبَ حُرِّيَّتِهِ أَنْ يَبِيعَ امْرَأَةً وَلَوْ كَانَتْ زَوْجَتَهُ؟» وَهُنَا لَمْ يَسْعَهُ إِلَّا أَنْ يُنَكِّسَ رَأْسَهُ نَازِلًا عَلَى حُجْمِهَا، مُسَلِّمًا بِرَأْيِهَا. فَاسْتَأْنَفَتْ قَائِلَةً: «وَقَدْ وَجِبَ عَلَيَّ أَنْ أَصْحَبَ زَوْجِي وَإِخْوَتَهُ فِي شَقَاوَتِهِمْ وَمِحْنَتِهِمْ، كَمَا صَحِبْتُهُمْ فِي هَنَاءَتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ. وَسَتَرَى كَيْفَ نَعُودُ مِنَ الْمَنْفَى سَالِمِينَ، مُتَحَفِّزِينَ لِلانْتِقَامِ مُسْتَعِدِّينَ.»

وَلَمْ يَتِمَّاكَ سِرَاةُ الْمَمْلَكَةِ وَأَعْيَانُهَا أَنْ يُصَفَّقُوا لَهَا، إِعْجَابًا بِشَجَاعَتِهَا وَهَمَّتِهَا. وَكَانُوا — بِرَغْمِ مَا يُعْلِنُونَ مِنْ طَاعَةِ الطَّاغِيَةِ — يُضْمِرُونَ لَهُ الْكِرَاهِيَةَ وَالْمَقْتِ، كَمَا يُضْمِرُونَ لِأَبْنَاءِ عَمِّهِ الْمُوَدَّةَ وَالْحُبَّ.

فَاحْمَرَّ وَجْهُ الطَّاغِيَةِ غَضَبًا، وَعَضَّ شَفْتَهُ وَهُوَ يَكَادُ يَتَمَيَّزُ (يَتَشَقَّقُ) مِنَ الْغَيْظِ وَالْحَنَقِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى انْتِكَارِ حَقِّ الْأَمِيرَةِ بَعْدَ أَنْ أَقْرَهَا الْحَاضِرُونَ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكْتُمَ غَضَبَهُ وَيَكْظِمَ غَيْظَهُ فَصَاحَ قَائِلًا: «لَيْكُنْ لَكَ مَا تُرِيدِينَ، فَادْهَبِي حَيْثُ تَشَائِينَ، وَانْطَلِقِي فِي صُحْبَةِ زَوْجِكَ التَّاعِسِ إِلَى مَنْفَاهُ، وَشَارِكِيهِ فِيمَا يُكَابِدُهُ وَيَلْقَاهُ، وَانْعَمِي بِحَيَاةِ الشَّقَاءِ بَيْنَ نَسَاكِ الْغَابَةِ، فَرُبَّمَا اسْتَطَاعَتْ أَعْوَامُ النَّفْيِ الطُّوَالَ أَنْ تُخَفَّ مِنْ عَجْرَفَتِكَ وَغُلُوَائِكَ، وَتُدَلَّ مِنْ صَلَفِكَ وَكِبْرِيَائِكَ، بَعْدَ أَنْ تُذِلَّ شَبَابِكَ وَتَذْهَبَ جَمَالِكَ.»

ثُمَّ شَفَعَ وَعِيدَهُ بِابْتِسَامَةٍ غَادِرَةٍ، أَتْبَعَهَا بِضِحْكَةٍ سَاخِرَةٍ، وَانْطَلَقَ فِي طَرِيقِهِ مُسْرِعًا.

وَحَانَتْ سَاعَةُ الْفِرَاقِ، فَشَاعَهُمْ صَفْوَةٌ مِنْ خُلَاصَتِهِمْ وَأَصْفِيَائِهِمْ إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ، وَاسْتَوَلَى الْأَسَى وَالْحُزْنَ عَلَى جَدِّهِمْ «بِهَشْمًا» حِينَ رَأَى ضَعْفَ الشَّيْخُوخَةِ يُعْجِزُهُ عَنِ الْوُقُوفِ فِي وَجْهِ حَفِيدِهِ، لِرَدِّ عُدُونِهِ، وَكَفَّهِ عَنْ طُغْيَانِهِ. وَقَالَ لَوْلَدِهِ «دَرَسْتَرَسَا»



الضَّرِيرِ، مُتَحَسِّرًا: «أَرَأَيْتَ كَيْفَ عَصَفَ بِأَسْرَتِنَا الْقَضَاءُ، وَالْهَبَ فِي قُلُوبِهَا نَارَ الْكِرَاهِيَةِ
وَالْبُغْضَاءِ؟ وَهَيْهَاتَ أَنْ يَنْعَمُوا بَعْدَ الْيَوْمِ بِمَا يَنْعَمُ بِهِ الْأَقْرَبُ مِنْ صَفَاءٍ، وَمَحَبَّةٍ وَوَفَاءٍ
وَسَتَرَى كَيْفَ يَعُودُ أَبْنَاءُ أَخِيكَ إِلَى الْقِتَالِ، بَعْدَ انْقِضَاءِ أَعْوَامِ النَّفْيِ الطَّوَالِ.»

وَأُزْتَجَّ عَلَى «الضَّرِيرِ» وَلَمْ يُسْعِفْهُ الْجَوَابُ. وَكَادَ النَّدْمُ يَقْتُلُهُ عَلَى مَا أَسْلَفَ لِأَوْلَادِ
أَخِيهِ مِنْ إِسَاءَةٍ، وَمَا دَبَّرَهُ — مَعَ وَلَدِهِ — مِنْ كَيْدِ حَسِيْسٍ، كَادَ — لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ —
يُلْقِي بِهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا حَدَّثْنَا بِهِ رِوَاةُ هَذِهِ الْمَأْسَاةِ، مَا شَهِدَهُ سَكَّانُ «هَسَنَابُورَا» فِي ذَلِكَ
الْيَوْمِ الْحَافِلِ بِأَعْنَفِ الذُّكْرِيَّاتِ. فَقَدْ سَمِعُوا عِقَبَ خُرُوجِ الْأُمَرَاءِ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ دَوِيًّا
وَجَلْبَجَةً كَهَزِيمِ الرَّعْدِ، حَيَلًا إِلَيْهِمْ أَنَّ الْأَرْضَ قَدْ زُلْزَلَتْ زَلْزَالَهَا. وَأَقْبَلَ ظَلَامُ اللَّيْلِ فَمَحَا
آيَةَ النَّهَارِ.

الفصل الرابع

المَعْرَكَةُ الْحَاسِمَةُ

(١) ابْنُ الشَّمْسِ

وَلَبِثَ أَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ» فِي مَنْفَاهُمْ بِالْغَابَةِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَامًا كَامِلَةً، مَرَّتْ بِهِمْ أَيَّامُهَا — كَمَا تَمُرُّ أَيَّامُ الشَّقَاءِ — بِطَيْئَةِ الْخَطِيءِ، ثَقِيلَةَ الْوَقْعِ، فَلَمَّا طَلَعَ فَجْرُ الْعَامِ الْجَدِيدِ أَسْرَعَ «يُدْشِتْ-هيرا» إِلَى حَتْنِهِ (وَالِدِ زَوْجَتِهِ) فَلَمْ يَقْصُرْ فِي إِمْدَادِ صِهْرِهِ (زَوْجِ ابْنَتِهِ) بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَالٍ وَعَتَادٍ وَرِجَالٍ. وَتَرَامَتِ الْأَنْبَاءُ إِلَى «دُرُيْدَهَانَا» بِمَا أَعَدَّهُ مَلِكُ «الْبَنْغَالِ» لِأَبْنَاءِ عَمِّهِ مِنْ جَيْشٍ وَعَتَادٍ، فَلَمْ يُفَاجَأْ بِالْخَيْرِ. فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ — مُنْذُ غَادَرُوا أَرْضَ الْوَطَنِ إِلَى مَنْفَاهُمْ — أَنَّهُمْ لَنْ يَقْصُرُوا فِي الْإِنْتِقَامِ، وَلَنْ يَتَوَانَوْا عَنِ الْمُطَالَبَةِ بِثَأْرِهِمْ. فَلَمْ يُضِعْ شَيْئًا مِنْ وَقْتِهِ، وَرَاحَ يَحْشُدُ الْجَبُوشَ وَيَعْقِدُ مُحَالَفَاتِ الصَّدَاقَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جِيرَانِهِ، خِلَالَ ثَلَاثَةِ عَشَرَ مِنَ الْأَعْوَامِ فَلَمَّا بَلَغَهُ النَّبَأُ أَسْرَعَ إِلَى صَفِيِّهِ «كَرْنَا» يَسْأَلُهُ أَنْ يَتَوَلَّى قِيَادَةَ جَيْشِهِ الْعَظِيمِ، لِيَتِمَّ عَلَى يَدَيْهِ النَّصْرُ. فَقَالَ لَهُ «كَرْنَا»: «هَيْهَاتَ ذَلِكَ هَيْهَاتَ. فَمَا تَسْتَطِيعُ يَدِي أَنْ تَمْتَدَّ لِأَبْنَاءِ «الشَّهِيدِ» بِسُوءٍ، وَلَنْ يَتِمَّ نَصْرُكَ بِغَيْرِ قَهْرِهِمْ. كَلَّا لَنْ أُحَارِبَ غَيْرَ «أَرْجُونَا» وَحَدَه، فَلَيْسَ لِي فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مُنَافِسٌ غَيْرُهُ؛ وَأَحْسَبُ أَنَّ الدُّنْيَا قَدْ ضَاقَتْ بِنَا فَأَصْصَبَحْتُ لَا تَسْعُنِي وَإِيَاهُ، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ لَسَلَّتُ لِسَانَهُ مِنْ قَفَاهُ». وَحَاوَلَ ابْنُ «الضَّرِيرِ» أَنْ يُزْحِزِحَ صَفِيَّهُ «كَرْنَا» عَنْ رَأْيِهِ قَيْدَ أَنْمَلَةٍ، فَلَمْ يَظْفَرْ بِطَائِلٍ. فَالْحَ عَليهِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَمَا زَالَ بِهِ حَتَّى قَبِلَ «كَرْنَا» قِيَادَةَ الْجَيْشِ، عَلَى الْأَيْمِ يَدُهُ بِسُوءِ لِإِخْوَةِ «أَرْجُونَا».

وَكَانَ لِهَذَا الْقَائِدِ الْفَتَى قِصَّةً يَكْتَنِفُهَا الْعُمُوضُ. وَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَعْرِفَهَا عَلَى وَجْهِهَا
الصَّحِيحِ: فَلَمْ تَكُنْ أُمَّ «كَرْنَا» عَلَى الْحَقِيقَةِ غَيْرِ الْمَلِكَةِ «كَنْتِي» زَوْجَةَ الشَّهِيدِ «بَدُو»
فَهُوَ أَخٌ لِمُنَافِسِهِ «أَرْجُونَا» وَإِخْوَتِهِ كَمَا تَرَى، أَخٌ لَهُمْ مِنْ أُمَّهُمْ وَإِنْ جَهَلُوا ذَلِكَ.
فِمَنْ أَيُّ أَبٍ أَنْجَبْتَهُ أُمُّهُ؟ مَنِ الشَّمْسِ أَنْجَبْتَهُ. فَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

كَانَ «إِيَاءُ» — فِيمَا تُحَدِّثُنَا بِهِ الْأَسَاطِيرُ الْهِنْدِيَّةُ — قَدْ تَزَوَّجَهَا سِرًّا، وَأَنْجَبَ مِنْهَا
«كَرْنَا» قَبْلَ أَنْ تَتَزَوَّجَ الشَّهِيدَ «بَدُو» وَلَمْ يَكُنْ «إِيَاءُ» إِنْسَانًا، بَلْ كَانَ مَلَكًا كَرِيمًا: كَانَ
«إِيَاءُ» مَلَكَ الشَّمْسِ. وَسَأَلْتُهُ زَوْجَهُ ضَارِعَةً — إِلَيْهِ — أَنْ يَهَبَ لِحَبِينِهَا مَا يَكْفُلُ حِمَايَتَهُ
مِنَ الْإِنْسِ فَمَا كَانَ أَسْرَعَهُ إِلَى تَلْبِيَةِ رَجَائِهَا. وَكَسَا جِلْدَهُ بَرْعًا مَعْدِنِيَّةً رَقِيقَةً لَا تَنفُذُ
فِيهَا السَّهَامُ، وَلَا تَقْطَعُهَا السُّيُوفُ، وَلَا تَمْزُقُهَا الرَّمَاخُ.

فَطَمَعَتْ «كَنْتِي» فِي مَزِيدٍ مِنْ هِبَاتِ «إِيَاءُ» لِحَبِينِهَا. فَوَهَبَ لَهُ حَلَقَتَيْنِ طَبِيعِيَّتَيْنِ
نَبَتَا فِي أُنْدِيهِ، كَمَا تَنْبُتُ الْأَصَابِعُ فِي الرَّاحَتَيْنِ (الْيَدَيْنِ) وَلَا سَبِيلَ إِلَى انْتِزَاعِ هَاتَيْنِ
الْحَلَقَتَيْنِ — كَمَا لَا سَبِيلَ إِلَى انْتِزَاعِ أَصَابِعِ الْيَدَيْنِ — إِلَّا بِقَطْعِهِمَا وَقَدْ اخْتَصَّ «إِيَاءُ»
وَلَدَهُ «كَرْنَا» بِمِنْحَتَيْهِ، لِنُكُونَا وَاقِيتَيْهِ مِنَ الرَّدَى، وَحَامِيَتَيْهِ مِنَ الْعَدَى، وَلِنُكُونَا آيَتَيْنِ
(دَلِيلَيْنِ) عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ السَّمَاءِ، وَلَيْسَ مِنْ أَبْنَاءِ الْإِنْسَانِيَّةِ. فَلَمَّا وُلِدَ «كَرْنَا» فَرِحَتْ أُمُّهُ
بِمَا وَهَبَهُ «إِيَاءُ» لِوَلِيدِهَا مِنْ مَنَحَةٍ عُلوِيَّةٍ وَلَكِنْ فَرَحَهَا لَمْ يَطُلْ، فَلَمْ تَمُرْ أَيَّامٌ قَلِيلٌ
حَتَّى فَاجَأَتْهَا أَحْدَاثُ الزَّمَنِ بِمَا بَدَّلَ سُرُورَهَا حُزْنًا.

وَكَادَتْ الْمَفْجَأَةُ تَنْهَلُهَا حِينَ قَدِمَ عَلَى دَارِهَا رَسُولٌ يُفْضِي إِلَيْهَا بِرَغْبَةٍ «إِيَاءُ» فِي
أَنْ تُسْرِعَ — فِي بُكْرَةِ الْعَدِ — إِلَى ضِفَّةِ نَهْرِ «الْكَنْجِ» وَتَضَعُ وَلِيدَهَا فِي مَائِهِ الطَّهَّورِ، بَعْدَ
أَنْ تُودِعَهُ سَلَّةً مِنَ الصَّفْصَافِ، لِيَحْمِلَهُ التِّيَّارُ إِلَى الْبُقْعَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا «إِيَاءُ» لِوَلِيدِهِ.
وَلَمْ تَجْرُ «كَنْتِي» عَلَى مُخَالَفَةِ «إِيَاءُ». وَرَجَعَتْ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ إِلَى بَيْتِهَا مَحْزُونَةً — بَعْدَ
أَنْ أَوْدَعَتْ وَلِيدَهَا مِيَاءَ النَّهْرِ — وَهِيَ لَا تَدْرِي إِلَى أَيِّ مَكَانٍ يَنْتَهِي بِهِ التِّيَّارُ. وَحَمَلَتْ
الْأَمْوَاجَ وَلِيدَهَا مَسَافَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ أَسْلَمَتْهُ إِلَى السَّاحِلِ أَمْنًا، حَيْثُ يُقِيمُ الْحُوذِيُّ الْكَرِيمُ
وَزَوْجُهُ الْحَنُونُ. فَتَبَيَّاهُ (اتَّخَذَاهُ لَهَا وَلَدًا) وَبَدَلَا جُهْدَيْهِمَا فِي رِعَايَتِهِ، وَلَمْ يَقْصُرَا فِي
الْعِنَايَةِ بِهِ وَتَهْذِيبِهِ، حَتَّى بَلَغَ سِنَّ النُّضْجِ، فَتَرَكَ دَارَهُمَا الصَّغِيرَةَ، وَانْطَلَقَ إِلَى الْغَابَةِ،
يُؤَثِّرُهَا عَلَى سُكْنَى الْمُدُنِ، مُسْتَهْدِيًا فِي طَرِيقِهِ بِغَرِيذَتِهِ الْعُلُوِيَّةِ. وَلَمْ تَلْبَثِ الْمُصَادَفَةَ أَنْ



جَمَعْتُهُ بِمُعَلِّمِ الرِّمَامِيَةِ «دُرُونَا» وَهُوَ يُدْرِبُ حَفَدَةَ «بِهَشْمَا». وَشَاءَ الْقَدْرُ الإِلَهِيُّ — الَّذِي لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ فِي دَفْعِ حَيْرِهِ وَلَا أَدَاةَ — أَنْ يَتَعَادَى الأَخْوَانَ، فَيُصِيبَ «كَرْنَا» وَ«أَرْجُونَا» — فِي عَالَمِنَا الأَرْضِيِّ — عَدُوِّينَ يَحْتَرِبَانِ وَيَصْطَرِعَانِ. كَمَا جَرَتْ الأَقْضِيَةُ أَنْ يَنْتَصِرَ لِلأَخْوَيْنِ المُتَعَادِيَيْنِ مَلِكَانِ كَرِيمَانِ؛ فَيَتَحَيَّرَ «إِبَاءَةً»: مَلِكُ النُّورِ لَوَلَدِهِ «كَرْنَا»، وَيَتَحَيَّرَ «إِنْدِرَا»: مَلِكُ القُوَّةِ، لِمُنَاصِرَةِ صَفِيهِ «أَرْجُونَا». وَكَانَ أَوَّلَ مَا اتَّجَهَ إِلَيْهِ «إِنْدِرَا» أَنْ يَبْدَأَ بِتَجْرِيدِ «كَرْنَا» مِنْ مَزَيَّنِيهِ: دِرْعِهِ وَحَلَقَتَيْ أُذُنَيْهِ، لِيَضْمَنَ الفَوْزَ لِمُنَافِسِهِ «أَرْجُونَا». وَفِيهَا — كَمَا عَلِمَتْ — سِرُّ حِمَايَتِهِ، وَمَصْدَرُ قُوَّتِهِ، وَلَنْ يَتِمَّ لِمُنَافِسِهِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ



إِلَّا بِانْتِزَاعِهَا مِنْهُ. وَذَهَبَ «إِنْدِرَا» فِي بُكْرَةِ الْعَدِ إِلَى «كَرْنَا» وَهُوَ يُصَلِّي عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ، بَعْدَ أَنْ اغْتَسَلَ بِمَائِهِ الطُّهُورِ. فاقْتَرَبَ مِنْهُ «إِنْدِرَا» مُسْتَخْفِيًا فِي زِيٍّ نَاسِكٍ بَرَهَمِيٍّ، وَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ سَمَاحَةِ «كَرْنَا» وَكَرَمِهِ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ لِسَائِلِ طَلَبًا. وَابْتَدَرَهُ «إِنْدِرَا» قَائِلًا: «مِنْحَةً يَا سَيِّدِي، مِنْحَةً أَسْتَوْهَبُكَ إِيَّاهَا.» فَأَجَابَهُ «كَرْنَا»: «لَكَ مَا تُرِيدُ يَا سَيِّدِي.» فَقَالَ «إِنْدِرَا»: «يَرْعُكَ وَحَلَقَتَا أُذُنَيْكَ هِيَ كُلُّ مَطْلَبِي إِلَيْكَ.» فَأَجَابَهُ «كَرْنَا»: «لَوْ قَدَرْتُ عَلَى ذَلِكَ لَمَا تَأَخَّرْتُ فَإِنَّ هَاتَيْنِ الْحَلَقَتَيْنِ نَشَأَتَا فِي أُذُنِي كَمَا نَشَأَتِ الْأَصَابِعُ فِي يَدِي، وَلَا سَبِيلَ إِلَى



انْتَرَا عِمَا مِنْهُمَا إِلَّا إِذَا قَطَعْتَهُمَا مِنْ جِسْمِي. وَقَدْ أَجَبْتُكَ إِلَى طَلْبِكَ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ. وَلَيْشَهْدُ سَكَّانُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنَّ «كَرْنَا» لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، وَلَا يَنْقُضُ عَهْدَهُ.»
وَلَمَّا هَمَّ بِانْتِرَاعِ الدَّرْعِ وَالْحَلَقَتَيْنِ أَلْهَمَ «إِيَاءَهُ» وَلَدَهُ «كَرْنَا» بِحَقِيقَةِ زَائِرِهِ الْعَظِيمِ، فَلَمْ يُضِعْ «كَرْنَا» تِلْكَ الْفُرْصَةَ، وَاتَّجَّهُ إِلَى «إِنْدِرَا» قَائِلًا: «مَا دَامَ سَيِّدِي «إِنْدِرَا» هُوَ الَّذِي يَسْتَوْهَبُنِي بِرِعِي وَحَلَقَتِي أُدُنِّي، فَإِنِّي أَسْأَلُهُ أَنْ يَمْنَحَنِي — مُنْقَضًا — عِوَضًا عَمَّا أَخَذَ.»

فَأَجَابَهُ «إِنْدِرَا»: «لَكَ مَا تَشَاءُ.» فَقَالَ «كَرْنَا»: «أَلْتَمَسُ مِنْ مَوْلَايَ الْعَظِيمِ أَنْ يَمْنَحَنِي سَهْمًا إِذَا لَمَسَ قَتْلَ.»
فَمَنَحَهُ «إِنْدِرَا» مَا طَلَبَ، وَانْتَزَعَ مِنْهُ بِرِعَهُ وَحَلَقَتِي أُدُنِّيهِ.
ثُمَّ صَعِدَ الْمَلِكُ إِلَى السَّمَاءِ مَسْرُورًا بِمَا صَنَعَ.

(٢) نَصِيحَةٌ وَرَجَاءُ

وَقَدْ عَرَفْتُ «كَنْتِي» وَلَدَهَا «كَرْنَا» مُنْذُ قَدِيمٍ عَلَى إِخْوَتِهِ وَاشْتَرَكَ مَعَهُمْ فِي التَّدْرُبِ عَلَى الرَّمَايَةِ. وَلَمْ تَكْفَ عَنْ مِلْحَظَتِهِ وَتَتَبُّعِ أَخْبَارِهِ، حَتَّى إِذَا عَلِمْتُ بِتَفْرِيطِهِ فِيمَا وَهَبَهُ لَهُ

وَالِدُهُ «إِيَادَةُ»، سَاوَرَهَا الْقَلْقُ. وَاشْتَدَّ بِهَا الْحُزْنُ لِفُقْدَانِهِ مَا كَانَ يُمَيِّزُهُ عَنْ أَبْنَاءِ الْأَرْضِ وَيُلْحِقُهُ بِأَبْنَاءِ السَّمَاءِ. وَكَتَمَتِ الْأُمُّ حُزْنَهَا، فَلَمْ تُفَضِّ بِسَرِّهَا إِلَى أَحَدٍ، وَهِيَ عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّ «إِيَادَةَ» لَنْ يَتَخَلَّى عَنْ رِعَايَةِ وَلَدِهِ وَحِمَايَتِهِ، بَرَعِمَ تَفْرِيطُهُ فِي وَدِيعَتِهِ. وَكَانَ — فِيمَا لَقِيَهُ «كَزْنًا» مِنْ نَجَاحٍ وَنَبَاهَةِ شَأْنٍ — عَزَاءً لِأُمِّهِ عَمَّا فَقَدَهُ مِنْ هِبَةٍ غُلُوبِيَّةٍ وَمَيِّزَةٍ سَمَاوِيَّةٍ. وَابْيَضَّ شَعْرُ «كَنْتِي» عَلَى مَرِّ السِّنِّينِ، وَدَبَّ الْوَهْنُ إِلَى جِسْمِهَا، وَالْحَجَّ عَلَيْهَا السَّقَمُ وَأَضْنَاهَا. وَأَرَقَّ نَوْمُهَا مَا مَنِي بِهِ أَبْنَاءُ الْعَمِّ مِنْ شِقَاقٍ وَزِرَاجٍ. فَلَمَّا حَرَجَ أَبْنَاؤُهَا مِنْ مَنَافِئِهِمْ أَيْقَنَتْ أَنَّ سَاعَةَ انْتِقَامِهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ عَمِّهِمْ قَدْ أَقْبَلَتْ. وَاشْتَدَّ انزعاجُهَا حِينَ عَلِمَتْ أَنَّ أَبْنَاءَ «الضَّرِيرِ» قَدْ عَهَدُوا إِلَى وَلَدِهَا «كَزْنًا» بِقِيَادَةِ جَيْشِهِمْ. فَهَالَهَا الْأَمْرُ، وَعَزَّ عَلَيْهَا الصَّبْرُ، فَاسْرَعَتْ إِلَى وَلَدِهَا مُتَسَلِّلاً لِتَفْضِي إِلَيْهِ بِسَرِّهَا وَتُخْبِرَهُ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ وَأَمْرِهَا، لَعَلَّهَا تَكْفُهُ عَنْ مُحَارَبَةِ إِخْوَتِهِ، وَتَقْوِيضِ دَعَائِمِ أُسْرَتِهِ، فَوَجَدَتْهُ مَشْغُولًا بِالصَّلَاةِ فَصَبَرَتْ عَلَيْهِ حَتَّى أَتَمَّهَا وَمَا إِنْ رَأَاهَا حَتَّى ابْتَدَرَهَا بِالتَّحِيَّةِ وَهَشَّ لِلِقَائِهَا شَاكِراً لَهَا مَا أَوْلَتْهُ مِنْ تَشْرِيفٍ وَكَرِيمٍ بِحُضُورِهَا إِلَيْهِ. ثُمَّ سَأَلَهَا مُتَلَطِّفاً عَمَّا أَقْدَمَهَا عَلَيْهِ بِرَعْمٍ مَا تَعَلَّمُ مِنْ صِدَاقَتِهِ لِعَمِيدِ أُسْرَةِ «الضَّرِيرِ»، الَّذِي لَا يَنْعَمُ بِعَطْفِهَا. فَأَقْبَلَتْ الْمَلَكَةَ عَلَيْهِ مُتَوَدِّدَةً إِلَيْهِ، مُمَسِّكَةً بِكِلْتَا يَدَيْهِ، تَهْزُئُهَا فِي لَهْفَةٍ وَاشْتِيَاقٍ، وَتَفْضِي إِلَيْهِ بِدِخْلَتِهَا فِي حُنُوٍّ وَإِسْفَاقٍ، وَكَانَ صَوْتُهَا يَتَهَدَّجُ، وَيَتَعَزَّرُ الْكَلَامُ فِي حَلْفِهَا وَيَتَحَشَّرُجُ، لِفَرْطِ تَأْثُرِهَا بِمَا تَسْتَعِيدُهُ مِنْ ذِكْرِيَاتِ أَلِيَمَاتٍ، وَمَا تَقْضُهُ عَلَى وَلَدِهَا مِنْ مَآسٍ فَاجِعَاتٍ. ثُمَّ خَتَمَتْ حَدِيثَهَا قَائِلَةً: «فَأَنَا أُمُّكَ كَمَا تَرَى. وَلَمْ يَكُنِ الْهُودِيُّ أَبَاكَ كَمَا تَوَهَّمْتَ، بَلْ أَنْتَ ابْنُ الشَّمْسِ: ذَاتِ النُّورِ وَالْحَرَارَةِ وَالِدَفِّءِ» وَأَرَادَتْ «كَنْتِي» أَنْ تُتِمَّ حَدِيثَهَا، فَاقْطَعَهَا «كَزْنًا» وَلَدَهَا قَائِلًا: «لَمْ يَغِبْ عَنِّي شَيْءٌ مِمَّا حَدَّثْتَنِي بِهِ يَا أُمَّاهُ. فَقَدْ عَرَفَ «كَزْنًا» أُمَّهُ وَأَبَاهُ، مِمَّا شَهِدَ — مُنْذُ سِنَوَاتٍ — فِي مَنَامِهِ، وَسَمِعَهُ فِي رُؤْيَاهُ (حُلْمِهِ) فَخَبَّرَنِي وَلَدَكَ بِمَا تُرِيدِينَ، وَمُرِيهِ بِمَا تَشَائِينَ، فَلَنْ يُخَالِفَ «كَزْنًا» لِأُمِّهِ رَأْيَا، وَلَنْ يَعْصِي لَهَا أَمْرًا». فَقَالَتْ «كَنْتِي»: «كُلُّ مَا أُرِيدُهُ مِنْكَ أَنْ تَتَخَلَّى عَنِ صِدَاقَةِ أَبْنَاءِ «الضَّرِيرِ» وَتَكْتَفَ عَنْ مُنَاصَرَتِهِمْ. فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنَ الْقِتَالِ بُدٌّ، فَحَذَارِ أَنْ تَعُوقَ أُسْرَتَكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَارِبَ إِخْوَتَكَ، فَهُمْ أَجْدَرُ بِمُنَاصَرَتِكَ، وَأَحَقُّ بِمُعَاوَنَتِكَ». وَمَا إِنْ بَلَغَتْ «كَنْتِي» هَذَا الْمَدَى مِنْ حَدِيثِهَا لِوَلَدِهَا حَتَّى ظَهَرَتْ أَمَامَهَا شِعَاعَةٌ جَمِيلَةٌ — مِنْ ضِيَاءِ الشَّمْسِ — لَمْ تَلْبُثْ

أَنْ تَمَثَّلَتْ لَهُمَا بَشَرًا سَوِيًّا، تَحُوطُ مَحْيَاهُ (وَجْهَهُ) الْمُشْرِقَ هَالَةً مِنَ النُّورِ، مُعَلَّقَةً فِي
أَطْرَافِهَا حَلَقَاتُ ذَهَبِيَّةٍ. وَاسْتَمَعَ «كَرْنَا» إِلَى صَوْتِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «مَا أَجْدَرَكَ — يَا
وَلَدِي — أَنْ تَسْتَعِينَ صَادِقَ عَزْمِكَ، وَتَسْتَلْتَهُمْ ثاقِبَ فَهْمِكَ، مُسْتَرْشِدًا بِنَصِيحَةِ أُمِّكَ.»
وَكَانَ «كَرْنَا» يَزْنُو بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، مُتَّجِهَاً إِلَى صُورَةِ «إِيَاءَ»، وَيَقُولُ لَهُ فِي خَجَلٍ
وَاسْتِحْيَاءٍ: «مَا كَانَ لِمِثْلِي أَنْ يَعْصِيَ لَوْلَادِيهِ أَمْرًا. وَلَكِنَّ قَضَاءَ اللَّهِ قَدْ رَبَطَ بَيْنِي وَبَيْنَ
«دُرَيْدِهَانَا» — كَمَا تَعْلَمَانِ — بِرِبَابٍ مِنَ الصَّدَاقَةِ لَا انْفِصَامَ لَهُ. وَقَدْ أَقْسَمْنَا — مُنْذُ
تَعَارَفْنَا — عَلَى الْمَوَدَّةِ، وَحَلَفْنَا عَلَى الْوَفَاءِ، فَصَدَقُونِي وَعَدَهُمْ، وَمَا كُنْتُ لِأَتَنْكَرَ لَوُدِيهِمْ،
وَأَحْنَتْ فِي يَمِينِي لَهُمْ.» ثُمَّ أَطْرَقَ بِرَأْسِهِ بُرْهَةً، وَاسْتَأْتَفَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «أَقْسِمُ لَكُمْ —
بِمَا أَسْدَيْتُمَاهُ إِلَيَّ مِنْ كَرِيمِ عَطْفِكُمَا، وَبِمَا طَوَّقْتُمَا بِهِ عُنُقِي مِنْ سَابِغِ فَضْلِكُمَا — إِنِّي
مُلَبٌّ لِإِشَارَتِكُمَا، مُسْتَجِيبٌ لِأَمْرِكُمَا، وَلَنْ تَمْنَدَ يَدِي بِالْأَدَى لِأَحَدٍ مِنْ إِخْوَتِي، لَا أَسْتَشْنِي
مِنْهُمْ غَيْرَ «أَرْجُونَا»، وَسَاقَتَصِرَ عَلَى صِرَاعِهِ وَجْهًا لَوَجْهِهِ، وَقَرَدًا لِقَرْدِهِ. وَهَكَذَا لَمْ يَظْفُرْ
أَبْوَاهُ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا الْوَعْدِ، فَفَقِنَا بِهِ عَلَى مَضْضٍ، وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ. وَغَابَتْ
صُورَةُ «إِيَاءَ» عَنْ أَنْظَارِهِمَا، وَاسْتَوَى الْحُزْنُ عَلَى «كَتْنِي». وَلَمْ يَكُنْ لَهَا حِيلَةٌ فِي رَدِّ
عَادِيَةِ الْقَضَاءِ، وَتَجَنَّبَ وَلَدَيْهَا مَا يَسْتَقْبِلَانِهِ مِنَ الْبَلَاءِ. وَجَاءَ يَوْمَ الصِّدَامِ، فَفَقِرَعَتْ
طُبُولَ الْحَرْبِ وَدَوَّتْ أَبْوَابُهَا، وَالتَقَى الْجَيْشَانِ عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ مِنْ حَاضِرَةِ الْبِلَادِ.
وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ، فِي غَيْرِ هَوَادَةٍ وَلَا رَحْمَةٍ، وَالتَحَمَّ الْجُنُودُ، وَاصْطَدَمَتِ الْمَرْكَبَاتُ
الْحَرْبِيَّةُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، حَتَّى إِذَا حُمِيَ وَطِيسَ الْحَرْبِ وَالتَّهَبَ أُتُونَهَا وَسُعِرَتْ جَعِيمُهَا،
قَفَرَتْ سَائِقُوهَا إِلَى أَعْدَائِهِمْ مُتَوَتِّبِينَ، مُسْتَمِيتِينَ فِي قِتَالِهِمْ مُسْتَقْتَلِينَ، يَدْفَعُهُمْ جُنُودُ
الْحَقْدِ وَتُلْهَبُهُمْ نَارُ الْإِنْتِقَامِ وَاشْتَبَكَتِ السُّيُوفُ، وَاشْتَجَرَتِ الرِّمَاحُ، وَتَرَامَتِ السَّهَامُ
كَالْمَطَرِ، وَمَرَّتِ الْأَعْلَامُ، وَتَقَصَّصَتِ الْحَرَابُ، وَاشْتَدَّتْ ثَائِرَةُ الْفَيْلَةِ وَهِيَاجُهَا، فَعَصَفَتْ
بِكُلِّ مَا لَقِيَتْهُ فِي طَرِيقِهَا — مِنْ جُنُودٍ وَجِيَادٍ وَمَرْكَبَاتٍ — تَسْحَقُ بِأَقْدَامِهَا الْغِلَظِ
النَّقِيلَاتِ فَإِذَا انْقَضَى النَّهَارُ وَحَلَّ الظُّلَامُ عَادَ الْمُحْتَرِبُونَ إِلَى فِرَاشِهِمْ مُكْدُودِينَ، خَابِرِي
الْقُوَى مَجْهُودِينَ. وَتَهَذَا الْجَلْبَةَ وَيَسْكُنُ الصَّحْبُ، وَيُطِلُّ عَلَيْهِمُ الْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَهُمْ
مُسْتَسْلِمُونَ لِنَوْمِهِمْ كَمَا يَسْتَسْلِمُ الْأَطْفَالُ الصَّغَارُ.

فَإِذَا لَاحَ فَجَرُ الْيَوْمِ التَّالِيِ انْدَفَعَ الْمُحَارِبُونَ يَسْتَأْنِفُونَ الْمَعْرَكَةَ مِنْ جَدِيدٍ بَعَزِيمَةٍ
تَقُلُّ الْحَدِيدَ. وَمَرَّتْ بِالْجَيْشَيْنِ الْمُتَقَاتِلَيْنِ سِتَّةَ عَشَرَ مِنَ الْإَيَّامِ دُونَ أَنْ تُدْنِيَ الْأَمَلِ فِي

انْتَصَارِ أَحَدِهِمَا عَلَى صَاحِبِهِ، وَرُجْحَانِ كِفَّتِهِ عَلَى مُحَارِبِهِ. فَدَبَّ الْيَأْسُ إِلَى الْقُلُوبِ،
وَاسْتَوَى الْجَزَعُ وَالْحَيْرَةُ عَلَى النُّفُوسِ.

(٣) صِرَاعُ الْأَخْوِينِ

وَاسْتَيْقَظَ «كَرْنَا» فِي فَجْرِ الْيَوْمِ السَّابِعِ عَشَرَ، وَانْطَلَقَ إِلَى «دُرَيْدَهَانَا» يَقْصُ عَلَيْهِ مَا
شَهِدَهُ فِي الْمَنَامِ لَيْلَةَ أَمْسٍ، مِنْ عَجِيبِ الرُّؤْيَى وَعَرِيبِ الْأَحْلَامِ. وَيُوَكِّدُ لَهُ أَنَّهُ قَدْ اقْتَنَعَ
أَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَنْ تَدُومَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا النَّهَارِ، وَلَنْ يَسْدُلَ اللَّيْلُ أَسْتَارَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ قَضَاءُ
اللَّهِ وَيَنْتَهِيَ صِرَاعُ الْأَخْوِينِ إِلَى غَايَتِهِ، فَيَبْقَى أَحَدُهُمَا فِي الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ وَيَصْعَدُ الْآخَرُ
إِلَى الْعَالَمِ السَّمَاوِيِّ. وَنَشِبَتِ الْمَعْرَكَةُ، فَتَسَلَّلَ «كَرْنَا» إِلَى سُرَادِقِهِ (حَيْمَتِهِ) وَتَفَقَّدَ سَهْمَهُ
الْمَسْحُورَ الَّذِي أَهْدَاهُ إِلَيْهِ «إِنْدِرَا» فِيمَا سَلَفَ مِنَ الْأَيَّامِ، وَأَوْدَعَهُ جَعْبَتَهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَبْحَثُ
عَنْ «أَرْجُونَا» حَتَّى النِّقَاهُ وَجْهًا لَوْجِهِ. وَنَشِبَ بَيْنَ الْأَخْوِينِ صِرَاعٌ عَنِيفٌ، لَمْ تَشْهَدْ لَهُ
بِلَادُ الْهِنْدِ مَثِيلًا. وَهَالَ الْجَيْشَيْنِ مَا تَجَلَّى فِي صِرَاعِهِمَا مِنْ ضُرُوبِ الْمُفَاجَأَاتِ. فَكَفُّوا عَنِ
الْقِتَالِ مَأْخُودِينَ بِشَجَاعَتِهِمَا وَبِرَاعَتِهِمَا مُتَتَبِعِينَ صِيَالَهُمَا وَهَجَمَاتِهِمَا.

وَتَحَدَّثَ بَعْضُ رُؤَاةِ الْأُسْطُورَةِ — مِمَّنْ شَهِدُوا صِرَاعَ الْأَخْوِينِ — فَرَعَمُوا أَنَّهُمْ رَأَوْا
— فِيمَا رَأَوْا — أَطْيَافًا مِنَ اللَّهَبِ تَتَخَلَّلُهَا أَشْبَاحٌ مِنَ النُّورِ، تَرِفُ — بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ —
فِي أَجْوَاзِ الْفَضَاءِ، مُحَلَّقَةٌ فِي الْهَوَاءِ، هَابِطَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَهِيَ لَا تَكْفُ عَنْ صَدِّ نِبَالِهِمَا
وَتَعْوِيقِ سِهَامِهِمَا — فِي يَقْظَةٍ وَانْتِبَاهٍ — حَتَّى تَتَحَوَّلَ فِي اتِّجَاهٍ غَيْرٍ مَا أَرَادَاهُ، لِتَعْرِقَلَ
مَا قَصَدَاهُ. وَكَانَتْ سِهَامُ «أَرْجُونَا» تَنْطَلِقُ طَائِرَةً فِي الْجَوِّ كَأَنَّهَا — لِغَزَارَتِهَا — أَسْرَابُ
الطَّيْرِ، وَكَلَّمَا أَوْشَكَ السَّهْمُ أَنْ يُصِيبَ مَرْمَاهُ، فَوَّتَّ عَلَيْهِ «كَرْنَا» غَرَضَهُ، وَحَنَى رَأْسَهُ،
فَمَرَّ السَّهْمُ بِسَلَامٍ. وَأَعَدَّ «كَرْنَا» فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ سَهْمًا نَافِذًا سَدَّدَهُ إِلَى قَلْبِ «أَرْجُونَا»
فَسَمِعَ الْجَيْشَانِ زَفِيفَهُ وَهُوَ يَشُقُّ الْهَوَاءَ فَحَادَ «أَرْجُونَا» عَنْ طَرِيقِ السَّهْمِ، وَأَرْسَلَ إِلَى
«كَرْنَا» سَهْمًا كَادَ يَصْرَعُهُ وَيُزِيدِيهِ، لَوْلَا تَفَادِيهِ. وَكَانَ الْبَطْلَانُ قَدْ بَلَّغَا فِي صِرَاعِهِمَا
الْمَدَى، وَانْتَهَيَا إِلَى آخِرِ الشُّوْطِ، فَانْدَفَعَا فِي حِمَاسَةٍ مُلْتَهَبَةٍ يَتَرَامِيَانِ بِالسَّهْمِ وَيَتَرَاشِقَانِ
بِالنَّبَالِ، فَتَضَطَّيْمُ النَّبَالِ بِالنَّبَالِ، وَتَتَكَسَّرُ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ.

وَمَا زَالَ الْفَارِسَانِ يَصْطَرِعَانِ دُونَ أَنْ يُصِيبَ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ مَقْتَلًا. وَكِلَاهُمَا يَرْتَقِبُ أَنْ يَنْسَرِبَ إِلَى صَاحِبِهِ السَّامِ وَالْمَلَلُ، حَتَّى إِذَا أَشْرَفَتْ شَمْسُ النَّهَارِ عَلَى الْغُرُوبِ، أَحَسَّ «كَرْنَا» أَنَّ الظَّلَامَ يُحِيمٌ عَلَى عَيْنَيْهِ وَالرَّعْشَةَ تَنْسَابُ إِلَى يَدَيْهِ. فَأَيَّقَنَ أَنَّ الغَلْبَةَ لَنْ تَنِمَّ لَهُ عَلَى مَنْفَسِهِ إِلَّا إِذَا اسْتَعَانَ بِسَهْمٍ «إِنْدِرَا». فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي إِخْرَاجِ السَّهْمِ الْمَسْحُورِ مِنْ جَعْبَتِهِ وَتَسْدِيدِهِ إِلَى قَلْبِ «أَرْجُونَا». فَكَادَ السَّهْمُ يُصِمِّيهِ، لَوْ لَمْ يُسْرِعْ «إِنْدِرَا» السَّاهِرَ عَلَى حِمَايَةِ «أَرْجُونَا»، إِلَى مَرْكَبَتِهِ، فَيَضْغَطَ عَجَلَتَهَا بِقَدَمَيْهِ وَهُوَ مُسْتَخْفٍ عَنِ الْأَبْصَارِ، فَتَغُوصَ الْمَرْكَبَةُ فِي الْأَرْضِ عِدَّةَ أَشْبَارٍ، وَيَطِيشُ السَّهْمُ بَعْدَ أَنْ يُطِيحَ بِتَاجِ الْأَمِيرِ، دُونَ أَنْ يُصِيبَ جِسْمَهُ بِأَذَى. وَثُمَّ يَعُودُ السَّهْمُ الْمَسْحُورُ إِلَى يَدِ مُرْسِلِهِ — مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ — بَعْدَ أَنْ أَخْطَأَ الْهَدَفَ، وَيَهْمَسُ فِي أُذُنِ «كَرْنَا» قَائِلًا: «ارْمِهْ بِي ثَانِيَةً، فَلَنْ يُفْلِتَ مِنِّي فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ. ارْمِهْ بِي مَرَّةً أُخْرَى، فَإِنِّي مُلَاحِقُهُ أَنَّى ذَهَبَ، وَصَارِعُهُ حَيْثُمَا اتَّجَهَ». وَهَكَذَا سَدَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ لِلْخُلَاصِ مِنْ «أَرْجُونَا» وَلَكِنْ «كَرْنَا» الشَّجَاعَ النَّبِيلَ أَبْتَلَتْ لَهُ مُرُوءَتَهُ، وَنُبِّلَ قَلْبُهُ وَطَهَّرَتْهُ، أَنْ يَعِمِدَ إِلَى قُوَّةٍ غَيْرِ قُوَّتِهِ، وَيَسْتَعِينِ السَّحْرَ عَلَى إِنْجَازِ طَلِبَتِهِ. أَبِي مُتَعَفِّفًا أَنْ يُطْلِقَ السَّهْمَ مَرَّتَيْنِ. وَلَمْ يَكُنْ «أَرْجُونَا» عَارِفًا بِمَا يَفِيضُ بِهِ قَلْبُ أَخِيهِ مِنْ طَهَارَةٍ وَنُبْلِ وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ شَرَفَ نَفْسِهِ وَكَرَمَ عُنْصَرِهِ، قَدْ أَبْيَا عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَصِرَ بِسِلَاحٍ لَا فَضْلَ لَهُ فِيهِ.



وَلَوْ عَلِمَ «أَرْجُونَا» ذَلِكَ لَكَفَّ عَنِ الصَّرَاحِ. وَلَكِنْ هَكَذَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ وَجَرَتِ الْأَقْضِيَّةُ، فَحَجَبَتْ عَن «أَرْجُونَا» مَا تَرَحَّرَ بِهِ نَفْسُ أَخِيهِ مِنْ طَهَارَةٍ وَشَرَفٍ. فَانْتَهَزَ

صِرَاعُ الْأَخْوَيْنِ

فُرْصَةَ اشْتِغَالِ «كَرْنَا» بِمُنَاجَاةِ نَفْسِهِ، وَسَدَدَ إِلَيْهِ سَهْمًا قَاتِلًا أَطَاحَ بِرَأْسِهِ، وَفَصَلَهُ مِنْ جَسَدِهِ. فَهَوَى الْفَارِسُ النَّبِيلَ إِلَى الْأَرْضِ صَرِيعًا مُجَدَّلًا، وَصَعِدَ رُوحُهُ إِلَى السَّمَاءِ، بَيْنَ الْأَسْفِ وَالْبُكَاءِ. وَتَوَارَى كَوْكَبُ الشَّمْسِ خَلْفَ مَا تَجَمَّعَ مِنَ الْغُيُومِ وَالسُّحُبِ. وَكَفَّ مَاءَ النَّهْرِ عَنِ خَرِيرِهِ، وَذَابَ الثَّلْجُ عَلَى قِمَمِ الْجِبَالِ، وَتَوَقَّفَ الطَّيْرُ عَنِ غِنَائِهِ، وَتَنَاوَحَتِ الرِّيَّاحُ تُعَلِّنُ فِي أَرْجَاءِ الْهِنْدِ مَصْرَعَ فَارِسِهَا الشُّجَاعِ.

وَتَعَالَى صُرَاخُ أَبْنَاءِ «الضَّرِيرِ» وَعَوِيْلُهُمْ، وَدَبَّ الْفَزَعُ وَالرَّعْبُ إِلَى قُلُوبِهِمْ، فَاضْطَرَبَتْ صُفُوفُهُمْ، فَكَّرَ عَلَيْهِمْ «أَرْجُونَا» وَجَيْشُهُ كَرَّةً صَادِقَةً انْخَلَعَتْ لَهَا قُلُوبُهُمْ، فَلَاذَ الْجَيْشُ بِالْفِرَارِ، بَعْدَ أَنْ هَلَكَ قَادَتُهُمْ وَدَالَتْ دَوْلَتُهُمْ.

(٤) خَاتِمَةُ الْمَأْسَاءِ



وَعَادَ أَبْنَاءُ «الشَّهِيدِ» إِلَى أَهْلِهِمْ فَرَحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ بِمَا ظَفَرُوا بِهِ مِنْ نَصْرِ مُبِينٍ. وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ عَرَفُوا مِنْ عَمَّهُمْ «دَرَسْتَرَسَا» الضَّرِيرِ وَ«جَنْدَهَارِي» زَوْجَتِهِ وَ«كَنْتِي» أُمِّهِمْ وَ«فِيدُورَا» خَالِهِمْ، تَفْصِيلَ مَا جَهَلُوهُ مِنْ قِصَّةِ أَخِيهِمْ؛ فَقَدْ عَجَزُوا عَنِ كِتْمَانِ السَّرِّ، بَعْدَمَا فُوجِتُوا بِمَا أَسْفَرَتْ عَنْهُ الْمَأْسَاءُ الْفَاجِعَةُ مِنْ فَقْدَانِ زَهْرَةِ شَبَابِ الْوَطَنِ وَحَمَاتِهِ، وَصَفْوَةِ أَعْيَانِهِ وَسِرَاتِهِ. وَتَجَلَّى لِعَمَّهُمْ «الضَّرِيرِ» مَا جَلَبَهُ الْحَسَدُ

وَأَجُورُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَوْلَادِهِ وَعَلَى وَطْنِهِ مِنْ كَوَارِثِ وَأَهْوَالِ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ دَامِعَ الْعَيْنِ مَحْزُونِ الْقَلْبِ، وَقَالَ: «إِنَّهَا إِرَادَةٌ عُلوِيَّةٌ وَمَشِيئَةٌ سَمَوايَّةٌ جَرى بِهَا الْقَدْرُ، وَهِيَ — كَمَا تَرَوْنَ — عِقَابُ رَادِعٍ حَلَّ بِى وَبِأَبْنائى جِزَاءَ ما بَنَيْنا مِنْ عَدَاوَتِ، وَما أَسْلَفنا مِنْ جَوْرِ وَإِسْاءاتِ. وَلَمْ يَبْقَ لى فِي الْحِياةِ — بَعْدَ الْيَوْمِ شَيْءٌ — أَحْرَصُ عَلَيْهِ غَيْرَ الانْصِرَافِ إِلَى عِبادَةِ اللَّهِ، وَقَدْ أَرْمَعْتُ الذَّهَابَ إِلَى شَطِّ «الْكُنْجِ» حَيْثُ أَقْضى ما بَقى مِنْ أَيَّامى الْقَلِيلَةِ فِي النُّسْكِ وَالِاسْتِغْفارِ، وَالتَّوْبَةِ مِمَّا أَسْلَفْتُ مِنْ ذُنُوبِ كِبارِ». وَأَقَرَّتْهُ زَوْجُهُ «جُنْدَهاري» عَلَى فِكْرَتِهِ، وَصَحِبَتْهُ إِلَى صَوْمَعَتِهِ، حَيْثُ تَعَبَّدُ رَبِّها وَتَقْضى إِلَى جِوارِ زَوْجِها ما بَقى مِنْ عُمْرِها. وَلَمْ يَدْخُرْ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» جُهْدًا فِي تَعزِيزَتِهما، وَعَقَدُوا العَزْمَ عَلَى مُصاحَبَتِهما إِلَى مَقَرِّهما، حَيْثُ أَقامُوا شَهْرًا كاملاً فِي صَوْمَعَتِهما، يَعْبدُونَ اللَّهَ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ. ثُمَّ وَدَّعُوهُما، بَعْدَ انْقِضاءِ الشَّهِرِ. عائِدِينَ إِلَى وَطْنِهمْ، حَيْثُ أَقامُوا العَدْلَ بَيْنَ النَّاسِ، وَنَشَرُوا بَيْنَهُمْ رُوحَ الصَّفْحِ وَالرَّحْمَةِ وَالإِحْسانِ، وَوَقَفُوا عَلَى الإِصْلاحِ جُهودَهُمْ، فَعَلَا شَأْنُهُمْ، وَتَبَّتْ مُلْكُهُمْ، وَعَزَّ سُلْطانُهُمْ، وَكَثُرَ انْصِرَافُهُمْ، وَحَلَا الجِوُّ لَهُمْ، بَعْدَ أَنْ انْدَحَرَ حُسادُهُمْ وَهَلَكَ أَعْدائُهُمْ. وَصَحِبَتْهُمُ عِنايَةُ اللَّهِ وَتَوْفيقُهُ، فَداثَتْ لَهُمُ الأَيَّامُ، وَبَلَغُوا مِنْ نَهْرِهمْ المَرامَ، وَعاشُوا بَيْنَ مَلُوكِ الأَهِندِ، مُتَفَرِّدينَ بِالنِّئانِ وَالْحَمْدِ، مَوْصُوفِينَ بِالبَطُولَةِ وَالْمَجْدِ. وَأَصْبَحُوا بَعْدَ مَوْتِهِمْ مَضْرَبَ الأَمْثالِ — عَلَى كَرِّ العُصُورِ وَتَواليِ الأَجْمالِ — فِي الإِقْدامِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالتَّفَوُّقِ وَالْبِراةِ: جُنُودًا مُحارِبِينَ، وَهُداةً مُرْشِدِينَ، وَحُكَّامًا مُصْلِحِينَ..